إصدارات أنصار الإمام المهدي عليه السلام / العدد (١١٣)

بحث في العصمة

الأستاذ

عبد الرزاق الديراوي

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

لمعرفة المزيد حول دعوة السيد أحمد الحسن عليه السلام

يمكنكم الدخول إلى الموقع التالي :

www.almahdyoon.org

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآل محمد الطيبين الطاهرين المعصومين المنتجبين الأئمة والمهديين وسلم تسليماً كثيراً.

منذ قرون متمادية واللغط يدور حول موضوع العصمة والمعصوم؛ ففريق يقبل وفريق يرفض، فريق يقول بوجود المعصوم ويوجب العصمة، وقد يصور العصمة بإطار أوسع بكثير من صورتها، وآخر يمنع، أو يضيق دائرتها ليحصرها بتبليغ الوحي الإلهي، ويريد منه تبليغ القرآن تحديداً.

ومن جهة الفريق القائل بالعصمة يلاحظ المتتبع تضارباً كبيراً في الكلمات على مستوى التعريف وبيان الحقيقة، أو المنشأ، ويبدو المعنى غامضاً ومعقداً لأبعد الحدود، ويتجلى العنت والسعي لترقيع الثغرات بوضوح يبعث على الرثاء، والاستغراب معاً.

والحق إن المتكلمين لاسيما الشيعة منهم أبعدوا فكرة العصمة كثيراً عن أفهام الناس، في الوقت الذي ظنوا أنهم يقربونها من أذهانهم، بل أنهم وللأسف الشديد جعلوا من العصمة هدفاً تصوّب نحوه السهام بما أضافوه من مقولات لا علاقة لنفس العصمة بها.

ولو أنهم التزموا بتعريف آل محمد عليهم السلام للعصمة والمعصوم، وتوقفوا عند الحد الذي حدوهما به، لجنبوا أنفسهم الأخطاء الكثيرة التي وقعوا فيها، واللبس الغريب عن حقيقة العصمة الذي أوقعوا الناس فيه.

كما أن الملاحظ على أبحاثهم أن العناوين فيها تتداخل دون تمييز، فالعصمة ترتبط في كلماتهم بعناوين أخرى من قبيل عنوان الخلافة أو النبوة، وحيث أن لكل عنوان ملازمات تختلف عن مثيلاتها المرتبطة بالعنوان الآخر، تراهم يتعاملون مع الجميع وكأنها ملازمات لموضوع أو عنوان واحد. فالعلم مثلاً مرتبط بالخلافة، أو قيادة الناس، ولكنهم يسحبونه للعصمة، فيفترضون أن المعصوم بما هو معصوم لابد أن يكون محيطاً بكل العلوم، بينما

المعصوم يكون محيطاً بالعلوم اللازمة لتأدية وظيفته بوصفه خليفة الله وحجته على عباده، أي بهذا العنوان لا بعنوانه كمعصوم.

هذا الخلط يتجلى بوضوح في الفكرة المنعكسة في أذهان الناس عن العصمة، وهؤلاء عادة ما تتكون أفكارهم من خلال ما يسمعونه من علمائهم، أو يقرؤونه في كتبهم.

إن الإقرار بعصمة حجج الله تعالى على خلقه أمر يرقى إلى مصاف الأمور البديهية، ولعل أكثر الناس عناداً لن يجرؤ على الاعتراض والنقض عليه، لولا هذا التعقيد والتكلف، بل الفهم السقيم الذي أحاطه به المتكلمون، فكانوا بحق مثالاً لمن يسيء وهو يظن أنه يُحسن صنعاً !

من هذا المنطلق سيسعى هذا البحث إلى إعادة مفهوم العصمة لنقائه وبراءته الأولى، ملتزماً بالحدود التي خطها آل محمد عليهم السلام .

كما إن التباس مفهوم العصمة الناشئ عن التدخلات غير المحمودة لعلماء الكلام سيحتم منهجاً يتحرى كنس الشبهات، وتشذيب الزوائد المصطنعة التي ألحقت بمفهوم العصمة. وسيلاحظ القارئ أن الكاتب يركز كثيراً على مسألة النحو وعلاقته بالعصمة، بحيث يجد هذه المسألة تستغرق صفحات طويلة قياساً بحجم الكتاب، وقد يتراءى له أن معالجة المسألة بهذه الطريقة وهذا المقدار من الصفحات يخرج البحث عن موضوعه، وهذه ملاحظة صحيحة على الإجمال. فالمسألة على المستوى النظري ذات صلة ضعيفة بموضوع العصمة، و لم يسبق لأحد أن عدها من مباحثها. غير أن ما يشفع للكاتب فعله، ويسوغه له تماماً ما نجده على المستوى الواقعي، أو على صعيد ما يلهج به الناس ويرددونه في أحاديثهم اليومية، وفي نقوضاتهم المزعومة على دعوة الحق؛ الدعوة اليمانية المباركة، فالمسألة على هذا المستوى تتبوأ مقعد الصدارة عن غير استحقاق.

إذن على المستوى العملي قد تكون هذه المسألة، أو قل الشبهة واحدة من أخطر المسائل المتعلقة ببحث العصمة، ومن هنا كان لابد من مواجهتها بالبيان الكافي.

ولعل القارئ لن يغفل عن عدم تعرض الكاتب لآيات من قبيل آية التطهير، وأحاديث كحديث الثقلين، وهما واضحا الدلالة على عصمة أهل البيت سلام الله عليهم، ولكن القارئ

لن يغفل أن الكثير الذي كتب فيهما فيه الكفاية إن شاء الله تعالى. كما أن البحث يتعلق بالعصمة بصرف النظر عن مصاديقها.

أسأل الله سبحانه وتعالى العون والتسديد، إنه نعم المولى ونعم النصير، وأسأله ﷻ، وهو الذي لا يُخيّب سائله أن يتجاوز عن قصوري وتقصيري، ولا يكلني لنفسي طرفة عين دائماً أبداً. والحمد لله الذي هدانا لولاية محمد وآل محمد وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق، اللهم صل على محمد وآل محمد الأئمة والمهديين وسلم تسليماً.

عبد الرزاق

مفهوم العصمة في اللغة والقرآن والحديث:

قال ابن السكيت في ترتيب إصلاح المنطق:

(ويقال: قد أعصم الرجل يعصم إعصاماً، إذا تشدد واستمسك بشيء من أن يصرعه فرسه وراحلته. قال الشاعر: * كفل الفروسة دائم الاعصام * وقال طفيل: و لم يشهد الهيجا بألوث معصم * وقد عصمه يعصمه عصما وعصمة، إذا منعه. وقد عصمه الطعام، أي منعه من الجوع. وقد أعصمت القربة، إذا جعلت لها عصاماً) [١].

وقال ابن منظور في لسان العرب: (عصم: العصمة في كلام العرب: المنع. وعصمة الله عبده: أن يعصمه مما يوبقه. عصمه يعصمه عصما: منعه ووقاه) [٢].

وقال صاحب مختار الصحاح: (ع ص م العصمة المنع يقال عصمه الطعام أي منعه من الجوع، والعصمة أيضاً الحفظ وقد عصمه يعصمه بالكسر عصمة فانعصم واعتصم بالله أي امتنع بلطفه من المعصية وقوله تعالى: ﴿لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ﴾ يجوز أن يراد لا معصوم أي لا ذا عصمة فيكون فاعل بمعنى مفعول والمعصم موضع السوار من الساعد واعتصم بكذا واستعصم به إذا تقوى وامتنع)[٣].

وقال الراغب: العصم هو الإمساك، الاعتصام الاستمساك [٤].

وقال الزبيدي في تاج العروس: (والعصمة: بالكسر: المنع، هذا أصل معنى اللغة، ويقال: أصل العصمة الربط، ثم صارت بمعنى المنع. وعصمة الله عبده: أن يعصمه مما يوبقه. عصمه يعصمه عصما: منعه) [٥].

وقال الشيخ المفيد في أوائل المقالات: (القول في العصمة ما هي ؟ أقول: إن العصمة في أصل اللغة هي ما اعتصم به الإنسان من الشيء كأنه امتنع به عن الوقوع فيما يكره، وليس هو جنساً من أجناس الفعل، ومنه قولهم: (اعتصم فلان بالجبل) إذا امتنع به، ومنه سميت

١- ترتيب إصلاح المنطق - ابن السكيت الأهوازي: ص٤٤.
٢- لسان العرب - ابن منظور: ج١٢ ص٤٠٣.
٣- مختار الصحاح - محمد بن عبد القادر: ص٢٣٠.
٤- مفردات ألفاظ القرآن: ص٥٦٩ دار القلم - دمشق ١٤١٢ هـ.
٥- تاج العروس – الزبيدي: ج١٧ ص٤٨٢.

(العصم) وهي وعول الجبال لامتناعها بها. والعصمة من الله تعالى هي التوفيق الذي يسلم به الإنسان مما يكره إذا أتى بالطاعة، وذلك مثل إعطائنا رجلاً غريقاً حبلاً ليتشبث به فيسلم، فهو إذا أمسكه واعتصم به سمي ذلك الشيء عصمة له لما تشبث وسلم به من الغرق ولو لم يعتصم به لم يسم (عصمة)، وكذلك سبيل اللطف إن الإنسان إذا أطاع سمي (توفيقاً) و (عصمة)، وإن لم يطع لم يسم (توفيقاً) ولا (عصمة)، وقد بين الله ذكر هذا المعنى في كتابة بقوله: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً﴾، وحبل الله هو دينه، ألا ترى أنهم بامتثال أمره يسلمون من الوقوع في عقابه، فصار تمسكهم بأمره اعتصاماً، وصار لطف الله لهم في الطاعة عصمة، فجميع المؤمنين من الملائكة والنبيين والأئمة معصومون؛ لأنهم متمسكون بطاعة الله تعالى) [١].

وقال المقريزي في إمتاع الأسماع: (عصمة سائر الأنبياء والملائكة عليهم السلام قال ابن سيده: عصمه يعصمه منعه ووقاه وفي التنزيل: ﴿لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ أي لا معصوم إلا المرحوم. والاسم: العصمة) [٢].

قال ابن فارس: ("عصم" أصل واحد صحيح يدل على إمساك ومنع وملازمة، والمعنى في ذلك كله معنى واحد، من ذلك: "العصمة" أن يعصم الله تعالى عبده من سوء يقع فيه، "واعتصم العبد بالله تعالى": إذا امتنع، و "استعصم": التجأ، وتقول العرب: "أعصمت فلاناً" أي هيّأت له شيئاً يعتصم بما نالته يده. أي يلتجئ ويتمسك به) [٣].

من هذه الكلمات يتبين أن معنى العصمة اللغوي يدور حول المنع والوقاية، فالمعتصم بشيء ممتنع به ومتخذ منه واقية.

وسنرى أن هذا المعنى هو ما تؤكده وتدل عليه الآيات القرآنية والروايات الواردة عن أهل البيت صلوات الله عليهم أجمعين.

أما في القرآن فقد وردت مشتقات الجذر (ع ص م) في بعض الآيات من قبيل قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ

١- أوائل المقالات الشيخ المفيد: ج٤ ص١٣٤.
٢- إمتاع الأسماع للمقريزي: ج١١ ص١٨٢.
٣- معجم مقاييس اللغة – أبو الحسين أحمد بن فارس: ج٤ ص٣٣١.

بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[١]. أي تمسكوا وامتنعوا بحبل الله.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[٢]. أي يمنعك ويصونك.

وقال ابن نبي الله نوح عليه السلام كما يحكي الله تعالى عنه: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[٣]. يعصمني: يمنعني من الغرق.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٤]. أي ما لهم مانع أو واقي.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[٥]. وهنا أيضاً العصمة تعني الحفظ والمنع والوقاية.

ومثل هذا المعنى ورد في أحاديث أهل البيت عليهم السلام كذلك، فقد روى الصدوق، قال: (حدثنا أحمد بن محمد بن عبد الرحمن المقري، قال: حدثنا أبو عمرو محمد بن جعفر المقري الجرجاني، قال: حدثنا أبو بكر محمد بن الحسن الموصلي ببغداد، قال: حدثنا محمد ابن عاصم الطريفي، قال: حدثنا عباس بن يزيد بن الحسن الكحال مولى زيد بن علي، قال: حدثني أبي، قال: حدثني موسى بن جعفر، عن أبيه جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه علي بن الحسين عليهم السلام، قال: **الإمام منا لا يكون إلا معصوماً، وليست العصمة في ظاهر الخلقة فيعرف بها ولذلك لا يكون إلا منصوصاً.** فقيل له: يا ابن رسول الله، فما معنى المعصوم ؟

١- آل عمران: ١٠٣.
٢- المائدة: ٦٧.
٣- هود: ٤٣.
٤- يونس: ٢٧.
٥- غافر: ٣٣.

فقال: **هو المعتصم بحبل الله، وحبل الله هو القرآن لا يفترقان إلى يوم القيامة، والإمام يهدي إلى القرآن والقرآن يهدي إلى الإمام، وذلك قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾**) [١].

وروى أيضاً، قال: (حدثنا علي بن الفضل بن العباس البغدادي بالري المعروف بأبي الحسن الحنوطي، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن [أحمد بن] سليمان بن الحارث، قال: حدثنا محمد بن علي بن خلف العطار، قال: حدثنا حسين الأشقر، قال: قلت لهشام بن الحكم: ما معنى قولكم: "إن الإمام لا يكون إلا معصوماً" ؟ فقال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن ذلك فقال: **المعصوم هو الممتنع بالله من جميع محارم الله، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾**) [٢].

نخلص مما تقدم إلى أن العصمة تعني الاعتصام بالله تعالى عن محارمه، فالمعصوم هو المعتصم أو الممتنع بالله عز وجل.

وفي هذا الصدد يقول السيد أحمد الحسن عليه السلام جواباً على سؤال وُجه له:

(**السؤال/ ١١٤**: هل كل المعصومين أئمة ؟ هل العصمة محصورة بالأئمة فقط، أم باستطاعة كل البشر ؟ هل جميع الأنبياء والمرسلين أئمة ؟ هل بإمكان أي شخص أن يصل إلى مكانة النبي محمد صلى الله عليه وآله في معرفة الله ؟ هل يرتقي الإنسان بعمله كسلمان المحمدي، ويتسافل بعمله كأبي لهب ؟ وأين محل توفيق الله من هذا ؟

المرسل: أسعد أنور، عباس طاهر، عدنان مهدي، عماد خليل.

الجواب: بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآل محمد الأئمة والمهديين وسلم تسليماً.

خير ما يصعد من الأرض إلى السماء الإخلاص، وخير ما يترل من السماء إلى الأرض التوفيق، فعلى قدر إخلاص الإنسان يوفقه الله سبحانه. والإنسان مفطور على الارتقاء إلى أعلى ما يمكن أن يرتقي له المخلوق، و لم يفضل الله سبحانه إنساناً على إنسان إلاّ بالعمل

١- معاني الأخبار – الشيخ الصدوق: ص١٣٢.
٢- المصدر نفسه: ص١٣٢.

والإخلاص، والباب مفتوح إلى أن تقوم الساعة لكل إنسان أن يرتقي بالعمل والإخلاص إلى أعلى مقام، وكل مرسل معصوم ومن سواهم يمكن أن يعتصموا بالله عن محارم الله، وليس جميع الأنبياء المرسلين أئمة) [١].

فالعصمة علاقة طرفاها إخلاص من العبد من جهة، يقابله توفيق وتسديد من الله ﷻ من الجهة الأخرى، فبقدر ما يخلص العبد لربه، ويستحضره في كل شأن من شؤونه يجد الله سبحانه وتعالى حاضراً يوجهه ويسدده، حتى يكون له سمعه الذي يسمع به، وعينه التي يُبصر بها.

فالعبد ناقص ومفتقر لربه الكامل المطلق، وهذا النقص يمثل هوية العبد التي لا تفارقه، والله سبحانه وتعالى يعلم نقص عبده، ويدرك افتقاره إليه، فإذا ما لجأ له العبد وطلب تسديده سيجده خير عون.

هذا المعنى كافٍ تماماً لتحديد ماهية العصمة وحقيقتها، ولكن قيل قديماً: العلم نقطة كثرها الجهلاء !

ويتضح من هذا الفهم لحقيقة العصمة أن مفهومها يستبطن معنى أن المعصوم لا يعصم ذاته بذاته، بل يعصمه الله سبحانه، كما أن حجة الله أو خليفته المعتصم بالله تعالى يعصم من يؤمن به ويطيعه، وهم كل الناس باستثناء الخليفة الفعلي.

ومعنى عصمته لهم هو أنه لا يُدخلهم في باطل ولا يُخرجهم من هدى، وهذا هو فصل الخطاب، وغاية ما نحتاج معرفته من أمر المعصوم أو خليفة الله في أرضه، وكل ما عداه هو في الحقيقة زج لرؤوسنا الصغيرة في أمور لا تعنينا.

١- عن هشام بن سالم ودرست بن أبي منصور الواسطي، عنهما (عليهما السلام) قال: (الأنبياء والمرسلون على أربع طبقات، فنبي منبأ في نفسه لا يعدو غيرها، ونبي يرى في النوم ويسمع الصوت ولا يعاين في اليقظة ولم يبعث إلى أحد وعليه إمام مثل ما كان إبراهيم على لوط، ونبي يرى في منامه ويسمع الصوت ويعاين الملك وقد أرسل إلى طائفة قلوا أو كثروا كما قال الله: **(وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ)** قال: يزيدون ثلثين ألفاً، ونبي يرى في نومه ويسمع الصوت ويعاين في اليقظة وهو إمام مثل أولي العزم وقد كان إبراهيم نبياً وليس بإمام حتى قال الله: **(إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي)** بأنه يكون في ولده كلهم، **(قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)** أي من عبد صنماً أو وثناً) بصائر الدرجات - لمحمد بن الحسن الصفار: ص٣٩٣.
عن زيد الشحام، قال: سمعت أبا عبد الله ﷺ يقول: **(إن الله تبارك وتعالى اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، وإن الله اتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، وإن الله اتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، وإن الله اتخذه خليلاً قبل أن يجعله إماماً، فلما جمع له الأشياء قال: (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً) قال: فمن عظمها في عين إبراهيم قال: (وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) قال: لا يكون السفيه إمام التقي)** الكافي: ج١ ص١٧٥.

العصمة كما يُعرّفها المتكلمون:

أكثرَ المتكلمون من الحديث في العصمة، وتاهت بهم آراؤهم فيما يعنيهم وما لا يعنيهم، وركبوا كل شوهاء وصعبة، وما زادوا الطين بعد تيههم الطويل إلا بلّة ! وفيما يلي أهم كلماتهم بخصوص العصمة:

عرّفها الشيخ المفيد في كتابه النكت الإعتقادية بأنّها: (لطفٌ يفعلُهُ اللهُ تعالى بالمكلّف، بحيث تمنع منه وقوع المعصية، وترك الطاعة، مع قدرته عليهما) [١].

وقال الشريف المرتضى: (اعلم أن العصمة هي اللطف الذي يفعله تعالى، فيختار العبد عنده الامتناع من فعل القبيح، فيقال على هذا: إن الله عصمه، بأن فعل له ما أختار عنده العدول عن القبيح، ويقال: إن العبد معتصم؛ لأنه أختار عند هذا الداعي الذي فعل الامتناع عن القبيح) [٢].

وقال الشيخ الطوسي: (العصمة المنع من الآفة والمعصوم في الدين الممنوع باللطف من فعل القبيح لا على وجه الحيلولة) [٣].

وقال العلامة الحلي في الباب الحادي عشر ما نصه: (العصمة لطف بالمكلف بحيث لا يكون له داع إلى ترك الطاعة وارتكاب المعصية مع قدرته على ذلك) [٤].

وقال السيد عبد الله شبر: (ليس معنى العصمة إنّ الله يجبُرهُ على ترك المعصية، بل يفعل به ألطافاً، يترك معها المعصية، باختياره، مع قدرته عليها) [٥].

وعرّفها الفاضل المقداد بقوله: (العصمة عبارة عن لطف يفعله الله في المكلف بحيث لا يكون له مع ذلك داع إلى ترك الطاعة ولا إلى فعل المعصية مع قدرته على ذلك ويحصل

١- سلسلة مؤلفات الشيخ المفيد محمد بن محمد النعمان (٣٣٦ - ٤١٣ هـ) - دار المفيد، بيروت ١٩٩٣: ص٣٧ - تحقيق السيد محمد رضا الحسيني الجلالي.
٢- رسائل المرتضى - الشريف المرتضى: ج٣ ص٣٢٥ – ٣٢٦. تقديم: السيد أحمد الحسيني. إعداد: السيد مهدي الرجائي. ١٤٠٥. مطبعة الخيام – قم. دار القرآن الكريم – قم.
٣- التبيان - الشيخ الطوسي: ج٥ ص٤٩٠. تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي|الأولى| رمضان المبارك ١٤٠٩|مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي| مكتب الإعلام الإسلامي.
٤- الباب الحادي عشر: ص٣٧.
٥- حق اليقين - السيد عبد الله شبر: ج١ ص٩١.

انتظام ذلك اللطف بأن يحصل له ملكة مانعة من الفجور والإقدام على المعاصي مضافاً إلى العلم بما في الطاعة من الثواب، والعصمة (كذا)[١] من العقاب، مع خوف المؤاخذة على ترك الأُولى، وفعل المنسي) [٢].

وقال العلاّمة الحلي في شرح التجريد: (اختلف القائلون بالعصمة في أن المعصوم هل يتمكن من فعل المعصية أم لا ؟! فذهب قوم منهم إلى عدم تمكّنه من ذلك. وذهب آخرون إلى تمكّنه منها. أمّا الأولون: فمنهم من قال إنّ المعصوم مختص في بدنه، أو نفسه بخاصيّة تقتضي امتناع إقدامه على المعصية. ومنهم من قال: إنّ العصمة هي القدرة على الطاعة، وعدم القدرة على المعصية، وهو قول أبي الحسن البصري. وأمّا الآخرون الذين لم يسلبوا القدرة فمنهم من فسّرها: بأنه الأمر الذي يفعله الله تعالى بالعبد من الألطاف المُقرِّبة إلى الطاعات، التي يعلم معها أنّه لا يقدم على المعصية، بشرط أن لا ينتهي ذلك الأمر إلى الإلجاء. ومنهم من فسّرها: بأنّها ملكة نفسانية لا يصدر عن صاحبها معها المعاصي. وآخرون قالوا: العصمة لطفٌ يفعله الله لصاحبها، لا يكون معه داعٍ إلى ترك الطاعات، وارتكاب المعصية. وأسباب هذا اللّطف أمور أربعة:

أحدها: أن يكون لنفسه، أو لبدنه خاصيّة، تقتضي ملكةً مانعةً من الفجور، وهذه الملكة مغايرة للفعل.

الثاني: أن يحصل له علم بمثالب المعاصي، ومناقب الطاعات.

الثالث: تأكيد هذه العلوم بتتابع الوحي، أو الإلهام من الله تعالى.

الرابع: مؤاخذته على ترك الأولى، بحيث يعلم انّه لا يُترك مهملاً؛ بل يُضيَّقُ عليه الأمر في غير الواجب من الأمور الحسنة. فإذا اجتمعت هذه الأمور كان الإنسان معصوماً) [٣].

من الواضح أن كلمة (لطف) التي تشكل محور التعريف غامضةٌ للغاية، فما هو هذا اللطف، وما هي حقيقته ؟

١- ولعلها خطأ طباعي والصحيح هو المعصية.
٢- إرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين: ص٣٠١ – ٣٠٢. نقلاً عن عصمة الأنبياء - جعفر سبحاني: ص٢٠.
٣- كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد (تحقيق الزنجاني) - العلامة الحلي: ص٣٩١ – ٣٩٢. ط٤ ١٣٧٣ انتشارات شكوري – قم.

يخبرنا العلامة الحلي في النص الذي نقلناه قبل قليل أنه أحد أمور أربعة أو خمسة بالأحرى، باعتبار أن الخاصية التي يُشير إليها إما أن تكون لنفسه، أو لبدنه. وغير هذا الترديد بين النفس والبدن فإن النقطة الأولى التي ذكرها العلامة لا تزيد مفهوم اللطف غير غموض على غموضه ! فما هي هذه الخاصية التي تقتضي ملكة ؟ لا يخبرنا العلامة بشيء عنها !!

وإذا صرفنا النظر الآن عن هذا الغموض المضاعف نتساءل الآن: هذه الخاصية اللطفية سواء كانت في النفس أو البدن هل هي موهبة خاصة بالمعصوم أم يشترك فيها معه غيره ؟

إذا كانت خاصة به فلا مفر لهم من القول بالإلجاء، وأن المعصوم مجبر على العصمة، وبالتالي لا فضيلة ولا مزية له، فهو على حد تعبير المثل (مُكْرَهٌ أخاكَ لا بطل)!! وإذا كان يشترك فيها معه غيره فلا تكون هي سبب العصمة، وإلا لاشترك معه في العصمة بقية خلق الله غير المعصومين !

وأكثر مما تقدم يتناقض هذا التعريف تماماً مع ما ورد عن آل محمد عليهم السلام، فقولهم عليهم السلام: (**المعصوم هو الممتنع بالله من جميع محارم الله**) يدل على مبادرة من المعصوم تقابل بإيجاب من الله عز وجل. أما إذا قالوا إن هذه المبادرة ناشئة من تلك الخاصية الغامضة فهي الطامة الكبرى التي ما بعدها طامة؛ لأنهم في هذه الحالة يسلبون المعصوم كل شيء، فلا تقوى ولا إيمان نستجير بالله من قول السوء.

وقد يُقال: إن اللطف هو نفسه التوفيق الذي يمن به الله على عبده، فنقول: إذن ما معنى قولكم: إنه خاصية إما في البدن أو النفس ؟ فالتوفيق من الله عز وجل ولا ارتباط له ببدن ولا نفس العبد. ثم كيف تفسرون قولكم: (لا يكون له داع للمعصية)؟ أليس المعصوم مرتبط في هذا العالم بجسد مادي، وهذا الجسد يطلب الراحة والدعة وهو من هذه الجهة داع إلى المعصية ؟

وقد نقل الشيخ جعفر سبحاني تعريفاً للمتكلمين، فقال: (عرف المتكلمون العصمة على الإطلاق بأنّها قوة تمنع الإنسان عن اقتراف المعصية والوقوع في الخطأ) [1].

١- عصمة الأنبياء - جعفر سبحاني - مؤسسة الصادق عليه السلام: ص١٩ – ٢٠.

أقول: هذا التعريف للعصمة أقرب إلى الأمر الأول الذي ذكره الحلي، فكونها (قوة) يسلبها حقيقة كونها (علاقة)، أي علاقة بين العبد وربه، فمعنى كونها الامتناع بالله عن محارمه، هو كما سلفت الإشارة أن هناك حركة باتجاهه سبحانه يمثلها لجوء العبد، أو اعتصامه بالله، تقابلها حركة منه سبحانه وتعالى يمثلها تسديده لعبده وتوفيقه لما يحب ويرضى.

وعليه فإن وصف العصمة بأنها قوة يوحي بأن المراد هو كونها خاصية نفسية أو بدنية.

أما الأمر الثاني الذي ذكره العلامة وهو: (أن يحصل له علم بمثالب المعاصي، ومناقب الطاعات)، فهو صحيح، فمن يرى الدنيا عراق خترير في يد مجذوم، كما ورد عن علي عليه السلام: (**والله لدنياكم هذه أهون في عيني من عراق خترير في يد مجذوم**) [1]، فهو سيمتنع حتماً عن الوقوع في حبائلها. ونقول: نعم، العلم والمعرفة هما أساس عصمة المعصوم، ولهذا فالمعصوم يُعصم بقدر علمه ومعرفته التي هي تعود بالحقيقة إلى نفس الجهتين (الإخلاص والتوفيق) وقل ربي زدني علماً.

ولكننا نقول أيضاً هل العصمة هي هذا العلم نفسه ؟ لنسمع ما يقوله السيد الطباطبائي في تفسير الميزان، تحت عنوان: (كلام في معنى العصمة)، يقول: (إن الأمر الذي تتحقق به العصمة نوع من العلم يمنع صاحبه عن التلبس بالمعصية والخطأ، وبعبارة أخرى: علم مانع عن الضلال، كما أن سائر الأخلاق كالشجاعة والعفة والسخاء كل منها صورة علمية راسخة موجبة لتحقق آثارها، مانعة عن التلبس بأضدادها من آثار الجبن والتهور والخمود والشره والبخل والتبذير. والعلم النافع والحكمة البالغة وإن كانا يوجبان تتره صاحبهما عن الوقوع في مهالك الرذائل، والتلوث بأقذار المعاصي، كما نشاهده في رجال العلم والحكمة والفضلاء من أهل التقوى والدين، غير أن ذلك سبب غالبي كسائر الأسباب الموجودة في هذا العالم المادي الطبيعي فلا تكاد تجد متلبسا بكمال يحجزه كماله من النواقص ويصونه عن الخطأ صوناً دائمياً من غير تخلف سنة جارية في جميع الأسباب التي نراها ونشاهدها. والوجه في ذلك أن القوى الشعورية المختلفة في الإنسان يوجب بعضها ذهوله عن حكم البعض الآخر أو ضعف التفاته إليه كما أن صاحب ملكة التقوى ما دام شاعراً بفضيلة تقواه لا يميل إلى

١- نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج٤ ص٥٢ – ٥٣.

إتباع الشهوة غير المرضية ويجرى على مقتضى تقواه، غير أن اشتعال نار الشهوة وانجذاب نفسه إلى هذا النحو من الشعور ربما حجبه عن تذكر فضيلة التقوى أو ضعف شعور التقوى فلا يلبث دون أن يرتكب ما لا يرتضيه التقوى، ويختار سفساف الشره، وعلى هذا السبيل سائر الأسباب الشعورية في الإنسان وإلا فالإنسان لا يحيد عن حكم سبب من هذه الأسباب ما دام السبب قائماً على ساق، ولا مانع يمنع من تأثيره، فجميع هذه التخلفات تستند إلى مغالبة التقوى والأسباب، وتغلب بعضها على بعض. ومن هنا يظهر أن هذه القوة المسماة بقوة العصمة سبب شعوري علمي غير مغلوب البتة، ولو كانت من قبيل ما نتعارفه من أقسام الشعور والإدراك لتسرب إليها التخلف، وخبطت في أثرها أحيانا، فهذا العلم من غير سنخ سائر العلوم والادراكات المتعارفة التي تقبل الاكتساب والتعلم ... وعلى هذا فالمراد بقوله (وعلمك ما لم تكن تعلم) آتاك نوعاً من العلم لو لم يؤتك إياه من لدنه لم يكفك في إيتائه الأسباب العادية التي تعلم الإنسان ما يكتسبه من العلوم. فقد بان من جميع ما قدمناه أن هذه الموهبة الإلهية التي نسميها قوة العصمة نوع من العلم والشعور يغاير سائر أنواع العلوم في أنه غير مغلوب لشيء من القوى الشعورية البتة بل هي الغالبة القاهرة عليها المستخدمة إياها، ولذلك كانت تصون صاحبها من الضلال والخطيئة مطلقاً) [١].

من كلام صاحب الميزان يتضح أن العلم هو علة العصمة، فالعصمة تتحقق بالعلم كما عبر، إذن هو يرى العلم أمراً آخر غير العصمة نفسها، وهذا ما يؤكده مركز الرسالة في كتاب: (العصمة حقيقتها .. أدلتها)، فقد علق على كلام الطباطبائي المذكور، بالقول: (فقوله: "إنّ الأمر الذي تتحقق به العصمة نوعٌ من العلم يمنع صاحبه عن التلبس بالمعصية والخطأ" قول دقيق وصحيح، فالعلم أمرٌ تتحقق به العصمة، أي إن العصمة شيء والعلم أمرٌ آخر) [٢].

وإذا كان العلم غير العصمة، وكانت العصمة إنما تتحقق به، فهو يتقدم عليها رتبياً على الأقل، وهنا ينقدح سؤال: كيف يتحصل هذا العلم الخاص الذي وصفه الطباطبائي؟

١- تفسير الميزان: السيد الطباطبائي ١٤١٢هـ منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية - قم المقدسة: ج٥ ص٧٨ وما بعدها.

٢- العصمة حقيقتها. أدلتها: مركز الرسالة - تأليف مركز الرسالة، وهو بحث منشور على شبكة الإنترنيت: ص١٧.

يبدو من قول الطباطبائي: (وعلى هذا فالمراد بقوله: "وعلمك ما لم تكن تعلم" آتاك نوعاً من العلم لو لم يؤتك إياه من لدنه لم يكفك في إيتائه الأسباب العادية التي تعلم الإنسان ما يكتسبه من العلوم)، أن هذا العلم الخاص هبة من الله تعالى.

نسأل الآن: هل هذه الهبة الإلهية مُنحت للعبد دون استحقاق، أم أن ثمة ما عمله هذا العبد فاستحق أن يوهب هذا العلم الخاص ؟

إن قال: إنها مُنحت له دون استحقاق، فما مزيته وفضله على سائر الخلق ؟ ولماذا لم تُعط لغيره دون استحقاق ؟

وإن قال: إن العبد استحقها، كما يقول القرآن الكريم: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ﴾[1]، حيث جعل العلم مستحقاً لأجل التقوى، فإن التقوى بدورها ناتجة عن الاعتصام بالله والخضوع له، وبالنتيجة لا يصلح العلم لئن يكون علةً للعصمة، بل هو كما العصمة معلول للاعتصام بالله تعالى، فالعبد المعتصم بالله يفيض الله عليه العلم والتقوى والعصمة، وكلٌ بحسبه.

كذلك يدل وصفه للعلم بأنه (خاص) على أنه يغاير من حيث النوع العلم الاكتسابي، بل إنه نص على هذه الحقيقة بقوله: (فهذا العلم من غير سنخ سائر العلوم والإدراكات المتعارفة التي تقبل الاكتساب والتعلم)، وهم كما هو معروف من كلماتهم يقسّمون العلم إلى علم حضوري، وعلم اكتسابي، أو حصولي، ويقصدون من العلم الحضوري: العلم الذي تحضر فيه حقيقة المعلوم بنفسها، مثل شعور النفس بالألم. أما العلم الحصولي فيقصدون منه: العلم الذي يحضر المعلوم فيه من خلال صورته الذهنية، مثل علمنا بأن زوايا المثلث تساوي قائمتين.

ومعلوم أن العلم الحضوري يمكن أن تغفل النفس عنه، فالإنسان إذا شغلت باله قضية مهمة يمكن أن لا يشعر بألم جرح في بدنه، بل إن علمنا بالله تعالى هو علمٌ حضوري، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ

١ـ البقرة: من الآية ٢٨٢.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١]، ولكن الإنسان مع ذلك يغفل عن هذا العلم، أو قل لا يرتب عليه الأثر المطلوب، فيلحد وينكر وجود خالقه جل وعلا. ولكننا نجد السيد الطباطبائي يقول: (ومن هنا يظهر أن هذه القوة المسماة بقوة العصمة سبب شعوري علمي غير مغلوب البتة)، ويقول: (فقد بان من جميع ما قدمناه أن هذه الموهبة الإلهية التي نسميها قوة العصمة نوع من العلم والشعور يغاير سائر أنواع العلوم في أنه غير مغلوب لشيء من القوى الشعورية البتة بل هي الغالبة القاهرة عليها المستخدمة إياها، ولذلك كانت تصون صاحبها من الضلال والخطيئة مطلقاً)، فعن أي علم، أو أية قوة يتحدث ؟

أقول: لعل السيد الطباطبائي يتكلم عن قوة جبرية لا يملك المعصوم بإزائها حولاً ولا قوة، لاسيما هو يقول في موضع آخر من كتابه: (إنّ الله سبحانه خلق بعض عباده على استقامة الفطرة، واعتدال الخلقة، فنشأوا من بادئ الأمر بأذهان وقّادة، وإدراكات صحيحة ونفوس طاهرة، وقلوب سليمة، فنالوا بمجرد صفاء الفطرة وسلامة النفس من نعمة الإخلاص ما ناله غيرهم بالاجتهاد والكسب بل أعلى وأرقى لطهارة داخلهم من التلوث بألواث الموانع والمزاحمات، والظاهر أنّ هؤلاء هم المخلصون (بالفتح) لله في مصطلح القرآن، وهم الأنبياء والأئمة، وقد نص القرآن بأنّ الله اجتباهم، أي جمعهم لنفسه وأخلصهم لحضرته.

قال تعالى: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٢]. وقال: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٣]. وآتاهم الله سبحانه من العلم ما هو ملكة تعصمهم من الذنوب وارتكاب المعاصي، وتمتنع معه، صدور شيء منها عنهم صغيرة أو كبيرة) [٤].

وهذا الكلام يوحي بالجبر. على أننا نقول أن الله ﷻ قد خلق الجميع على استقامة الفطرة واعتدال الخلقة وليس بعض خلقه، كما يقول السيد الطباطبائي.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[٥].

١- الروم: ٣٠.
٢- الإنعام: ٨٧.
٣- الحج: ٧٨.
٤- تفسير الميزان: ج١١ ص١٦٢.
٥- التين: ٤.

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١].

وقد يُقال هنا أن السيد الطباطبائي (رحمه الله) لا يريد أن المعاصي ممتنعة ذاتاً، بل وقوعاً.

وللتوضيح بمثال أقول: إن الزوجية ممتنعة ذاتاً للعدد ثلاثة، وهذا هو الامتناع أو الاستحالة الذاتية، وكذلك فإن الورقة المبتلة غير قابلة للاحتراق طالما كانت مبتلة، فالاحتراق ممتنع وقوعاً لها طالما كانت مبتلة، وإن كان الورقة بحد ذاتها قابلة للاحتراق.

فالمعصوم إذن ممكن ذاتاً أن يوقع المعاصي، ولكنه لا يفعلها أبداً، أي إنها ممتنعة وقوعاً بالنسبة له. وبتعبير آخر: هو يمكن أن تصدر منه المعصية، ولكنه فعلاً وفي الخارج يستحيل صدورها منه.

وهم عادة ما يمثلون للمسألة بقولهم: إن الله ﷻ قادر ذاتاً على الظلم مثلاً، ولكنه هل يظلم فعلاً ؟ والجواب هو: كلا وحاشاه تعالى من الظلم [٢]، وكذلك من يعلم بأن هذا السائل سمٌ قاتل لا يُقدم على شربه، على الرغم من أن هذا الفعل ممكن بحد ذاته.

وفي هذا الصدد يقول الشيخ جعفر سبحاني: (إنّ الإنسان العاقل الواقف على وجود الطاقة الكهربائية في الأسلاك المتروعة من جلدها، لا يمسّها كذلك، كما أن الطبيب لا يأكل سؤر المجذومين والمسلولين لعلمهما بعواقب فعلهما، وفي الوقت نفسه يرى كل واحد منهما نفسه قادراً على ذلك الفعل، بحيث لو أغمض العين عن حياته وهيأ نفسه للمخاطرة بها، لفعل ما يتجنبه، غير إنهما لا يقومان به لكونهما يحبان حياتهما وسلامتهما.

فإن شئت قلت: إنّ العمل المزبور ممكن الصدور بالذات من العاقل والطبيب، غير انّه ممتنع الصدور بالعرض والعادة، وليس صدوره محالاً ذاتياً وعقلياً، وكم فرق بين المحالين، ففي المحال العادي يكون صدور الفعل من الفاعل ممكناً بالذات، غير انّه يرجح أحد الطرفين على الآخر بنوع من الترجيح بخلاف الثاني فإنّ الفعل فيه يكون ممتنعاً بالذات، فلا يصدر لعدم إمكانه الذاتي.

١- الروم: ٣٠.
٢- انظر على سبيل المثال: العصمة - محاضرات السيد كمال الحيدري بقلم: محمد القاضي: ص١٠٤ و ص١٣٧.

وإن شئت فلاحظ صدور القبيح منه سبحانه فإنّ صدوره منه أمر ممكن بالذات، داخل في إطار قدرته فهو يستطيع أن يدخل المطيع في نار الجحيم والعاصي في نعيم الجنة، غير أنّه لا يصدر منه ذلك الفعل لكونه مخالفاً للحكمة ومبايناً لما وعد به وأوعد عليه، وعلى ذلك فامتناع صدور الفعل عن الإنسان مع التحفظ على الأغراض والغايات، لا يكون دليلاً على سلب الاختيار والقدرة. فالنبي المعصوم قادر على اقتراف المعاصي وارتكاب الخطايا، حسب ما أُعطي من القدرة والحرية، غير أنّه لأجل حصوله على الدرجة العليا من التقوى واكتساب العلم القطعي بآثار المآثم والمعاصي واستشعاره بعظمة الخالق، يتجنب عن اقترافها واكتسابها ولا يكون مصدراً لها مع قدرته واقتداره عليها.

ومثلهم في ذلك المورد كمثل الوالد العطوف الذي لا يقدم على قتل ولده، ولو أُعطيت له الكنوز المكنوزة والمناصب المرموقة ومع ذلك فهو قادر على قتله، بحمل السكين والهجوم عليه وقطع أوردته) [١].

لا أرى أن المقايسة مع الله سبحانه وتعالى في محلها؛ لأن المعصوم معتصم بغيره، أي بالله عزّ وجلّ، وبالتالي ربما كان القياس قياساً مع الفارق.

وبالنسبة لمثال شرب السم المشهور بينهم، فهم يُقرّون بأن الساهي والناسي يمكن أن يُقدم على شرب السم، وبالنتيجة لا يكون علمه بسُمّيّته علة تامة لعدم إقدامه على شربه [٢].

إن هذا الساهي والناسي إذا ما ذكّره أحدهم سيكون تذكيره جزء من العلة لعدم إقدامه على شرب السم، وهكذا نقول: إن العصمة تتحقق للمعصوم بتوفيق الله عزّ وجلّ وتسديده له، ولا نقول مع ذلك أن العلم ليس له مدخلية، بل نقول: ليس هو العلة التامة الكاملة، ونقول:

١- عصمة الأنبياء - جعفر سبحاني: ص٣٧ – ٣٨.

٢ - وإذا قالوا أن الساهي والناسي لا يسمى عالماً حال سهوه ونسيانه، وبالتالي لا يرد اعتراضك علينا. فالجواب: أن الثمرة التي يرجوها المستدل تتحدد بكون العالم وبسبب علمه لا يورد نفسه ولا غيره موارد الخطأ، والحال أن هذا المحذور ممكن عند عروض النسيان والسهو، فنحن نتحدث عن فاعل من صفاته أنه يعلم ومن صفاته أن علمه يمكن أن يغيب حال السهو والنسيان، وعليه ما يراد من هذا الفاعل ممكن التخلف، وهو المطلوب. وبكلمة أخرى: إن المبحوث عنه إمكانية حدوث المحذور أو عدمها، وهذه الإمكانية تتشارك في تحققها أو عدمها عناصر كثيرة العلم أحدها، ومنه – أي التشارك - تُعلم عدم عليته التامة.

إن المعصوم لا يُعصمه علمه ولا يَعصم ذاته بذاته، بل هو يُعتصم بالله، والله سبحانه هو من يعصمه، والعلم الذي يمنحه الله للعبد يدخل في إطار عصمة الله له.

أما الأمر الثالث الذي ذكره العلامة الحلي وهو قوله: (تأكيد هذه العلوم بتتابع الوحي، أو الإلهام من الله تعالى).

أقول: في قوله هذا إقرار بأن المعصوم يعصمه الله تعالى، وحاجة المعصوم إلى تتابع الوحي، أو الإلهام يعني أنه مفتقر إلى الله ﷻ، وتسديداته.

أما الأمر الرابع وهو قوله: (مؤاخذته على ترك الأولى، بحيث يَعلم أنّه لا يُترك مهملاً؛ بل يُضيَّقُ عليه الأمر في غير الواجب من الأمور الحسنة)، فهو ينطوي على معنى أن الإرادة لها مدخلية في العصمة، وليس العلم وحده سببها، بل هو أقرب إلى افتراض أن الحصة الأكبر هي للإرادة. فكلامه يُفهم منه أن العلم موجود، ولكنه محتاج إلى التفعيل، وهذا ما يؤديه التضييق. كما أن العلامة لم يخبرنا متى يكون هذا التضييق؛ قبل العصمة أم بعدها ؟ فإذا كان قبلها، فهل يشترك فيه كل الناس، وهو ما لم يقل به أحد، ويوحي أيضاً بالجبر والإكراه، أم إنه بعدها، وعندئذ لا يكون له دور في العصمة المتحققة فعلاً.

أخيراً، يتضح من قوله: (فإذا اجتمعت هذه الأمور كان الإنسان معصوماً) أنه يرى أن العصمة تتحقق باجتماع الأمور الأربعة التي ذكرها. وأقل ما يُقال فيه أنه دليل حيرة، فالأمور الأربعة متناقضة فيما بينها، ولا أدري كيف تجتمع ؟

* * *

ومن أقوالهم في تحديد حقيقة العصمة ما نقله الشيخ جعفر سبحاني عن كتاب: (اللوامع الإلهية ص١٦٩)، وهو قوله: (كما نقل عن بعض الحكماء أنّ المعصوم خلقه الله جبلة صافية، وطينة نقية، ومزاجاً قابلاً، وخصّه بعقل قوي وفكر سوي، وجعل له ألطافاً زائدة، فهو قوي بما خصّه على فعل الواجبات واجتناب المقبحات، والالتفات إلى ملكوت السماوات، والإعراض عن عالم الجهات، فتصير النفس الأمارة مأسورة مقهورة في حيز النفس العاقلة)[1].

١- عصمة الأنبياء - جعفر سبحاني: ص٣٠.

وهذا القول لا يحتاج مزيد تأمل لإدراك ما فيه من قول بالجبر، وسلب الفضيلة عن المعصوم.

رأي الشيخ جعفر السبحاني في حقيقة العصمة:

يرى الشيخ جعفر السبحاني (إنّ حقيقة العصمة عن اقتراف المعاصي ترجع إلى أحد أُمور ثلاثة على وجه منع الخلو، وإن كانت غير مانعة عن الجمع)[١]، والأمور الثلاثة بحسبه هي [٢]:

١ العصمة: الدرجة القصوى من التقوى.

٢ العصمة: نتيجة العلم القطعي بعواقب المعاصي.

٣ الاستشعار بعظمة الرب وكماله وجماله.

أقول: لا شك أن لهذه الأمور الثلاثة مدخلية في العصمة، ولكنها جميعاً تصب في خاتمة المطاف في معنى واحد هو الاعتصام بالله تعالى، وطلب تسديده. فالدرجة القصوى من التقوى والعلم واستشعار عظمة الرب، كل هذه الأمور ترسخ في الإنسان حقيقة افتقاره لله تعالى، وتدفعه لطلب فيوضاته ﷻ، وهذا هو الاعتصام بالله.

* * *

العصمة والجبر:

انشغل المتكلمون كثيراً بمناقشة العلاقة بين العصمة والجبر، وهي مشكلة واجههم بها خصومهم الفكريين، بعد أن لاحظوا تخبطهم في تعريف العصمة وتحديد حقيقتها ومنشئها.

وقد لاحظنا فيما تقدم أن أكثر كلماتهم تميل إلى عدِّ العصمة هبة إلهية لا دور للمعصوم في تحصيلها، فهم مرة يعدونها لطفاً، ومرة هبة، ويصفونها على أنها خاصية نفسية أو بدنية، وهذه الكلمات تُشعر بأن المعصوم مجبر على الطاعة وترك المعصية.

١- عصمة الأنبياء: ص٢٠.
٢- انظر المصدر نفسه: ص٢١ وما بعدها.

كتب الشيخ جعفر السبحاني تحت عنوان: (هل العصمة موهبة إلهية أو أمر اكتسابي)، ما يلي: (إن العصمة سواء أفسّرت بكونها هي الدرجة العليا من التقوى، أو بكونها العلم القطعي بعواقب المآثم والمعاصي، أم فسّرت بالاستشعار بعظمة الرب وجماله وجلاله، وعلى أي تقدير فهو كمال نفساني له أثره الخاص، وعندئذ يسأل عن أنّ هذا الكمال هل هو موهوب من الله لعباده المخلصين، أو أمر حاصل للشخص بالاكتساب ؟ فالظاهر من كلمات المتكلمين أنّها موهبة من مواهب الله سبحانه يتفضّل بها على من يشاء من عباده بعد وجود أرضيات صالحة وقابليات مصحّحة لإفاضتها عليهم. قال الشيخ المفيد: العصمة تفضل من الله على من علم إنّه يتمسك بعصمته. وهذه العبارة تشعر بأنّ إفاضة العصمة من الله سبحانه أمر خارج عن إطار الاختيار، غير أنّ إعمالها والاستفادة منها يرجع إلى العبد وداخل في إطار إرادته، فله أن يتمسك بها فيبقى معصوماً من المعصية، كما له أن لا يتمسك بتلك العصمة.

وقال أيضاً: والعصمة من الله تعالى هي التوفيق الذي يسلم به الإنسان مما يكره إذا أتى بالطاعة.

وقال المرتضى في أماليه: العصمة: لطف الله الذي يفعله تعالى فيختار العبد عنده الامتناع عن فعل قبيح.

ونقل العلاّمة الحلّي عن بعض المتكلمين بأنّه فسر العصمة بالأمر الذي يفعله الله بالعبد من الألطاف المقربة إلى الطاعات التي يعلم معها أنّه لا يقدم على المعصية بشرط أن لا ينتهي ذلك إلى الإلجاء) [1].

قوله: (فالظاهر من كلمات المتكلمين أنّها موهبة من مواهب الله سبحانه يتفضّل بها على من يشاء من عباده بعد وجود أرضيات صالحة وقابليات مصحّحة لإفاضتها عليهم) يشير إلى أن العصمة علاقة بين المعصوم وربه، فالمعصوم يعتصم بالله تعالى، والله ﷻ يعصمه ويفيض عليه من فضله.

١- عصمة الأنبياء: ص٢٩ – ٣٠.

ولكن لا أدري كيف ظهر له هذا المعنى من كلمات المتكلمين، فهو لم يبيّن على أية حال، ثم إنه في النص نفسه ينقل تعريف الشيخ المفيد ويعلق عليه بخلاف هذا الظهور الذي يذكره !

كما أن كلامه هنا يناقض النظريات الثلاث التي ذكرها؛ فإذا كانت العصمة تعني أن المعصوم يرى الجنة ونعيمها والنار وعذابها، بحسب النظرية الأولى، وإذا كان علم المعصوم بالذنوب كعلمنا بالسم، بحسب النظرية الثانية، وإذا كان يستشعر عظمة الخالق جل وعلا، بحسب النظرية الثالثة، وهذا كله موهوب له، فما معنى قول السبحاني: (فله أن يتمسك بها فيبقى معصوماً من المعصية، كما له أن لا يتمسك بتلك العصمة) ؟؟ هل معناه أن يجهل بعد العلم ولا يعود يستشعر عظمة الرب وتقل تقواه ؟؟ وهل هذا ممكن ؟؟ وإذا كان ممكناً، فالمعصوم يمكن أن يفقد عصمته، وبالتالي ولاسيما مع معرفتنا أنه يمكن أن يفقدها كيف نطمئن إلى أنه لن يضلنا حال فقدانها ؟

بل إننا وقد علمنا إمكانية أن يفقدها لا يسعنا تجاوز احتمال أنه قد فقدها فعلاً، خاصة إذا ما خالف أهواءنا، وهنا ينتفي الغرض من العصمة. فإذا كنا لا ندري متى يفقدها ولا ندري إن كان قد فقدها فعلاً أم لا، فإننا سنتعامل معه كمن هو فاقدها.

أما قول السبحاني: (أنّها موهبة من مواهب الله سبحانه يتفضّل بها على من يشاء من عباده بعد وجود أرضيات صالحة وقابليات مصحّحة لإفاضتها عليهم)، فإنه يبين تلك القابليات في موضع آخر من كتابه، بقوله: (إنّ تلك القابليات على قسمين: قسم خارج عن اختيار الإنسان، وقسم واقع في إطار إرادته واختياره.

أمّا القسم الأوّل: فهي القابليات التي تنتقل إلى النبي من آبائه وأجداده عن طريق الوراثة، فإنّ الأولاد كما يرثون أموال الآباء وثرواتهم، يرثون أوصافهم الظاهرية والباطنية، فترى أنّ الولد يشبه الأب أو العم، أو الأم أو الخال، وقد جاء في المثل: الولد الحلال يشبه العم أو الخال.

وعلى ذلك فالروحيات الصالحة أو الطالحة تنتقل من طريق الوراثة إلى الأولاد، فنرى ولد الشجاع شجاعاً، وولد الجبان جباناً إلى غير ذلك من الأوصاف الجسمانية والروحانية.

إنّ الأنبياء كما يحدّثنا التاريخ كانوا يتولّدون في البيوتات الصالحة العريقة بالفضائل والكمالات، وما زالت تنتقل تلك الكمالات والفضائل الروحية من نسل إلى نسل وتتكامل إلى أن تتجسد في نفس النبي ويتولد هو بروح طيبة وقابلية كبيرة لإفاضة المواهب الإلهية عليه.

نعم، ليست الوراثة العامل الوحيد لتكوّن تلك القابليات، بل هناك عامل آخر لتكوّنها في نفوس الأنبياء وهو عامل التربية، فإنّ الكمالات والفضائل الموجودة في بيئتهم تنتقل من طريق التربية إلى الأولاد.

ففي ظل ذينك العاملين: "الوراثة والتربية" نرى كثيراً من أهل تلك البيوتات ذوي إيمان وأمانة، وذكاء ودراية، وما ذلك إلاّ لأنّ العائشين في تلك البيئات والمتولدين فيها يكتسبون جل هذه الكمالات من ذينك الطريقين، وعلى ذلك فهذه الكمالات الروحية أرضيات صالحة لإفاضة المواهب الإلهية إلى أصحابها ومنها العصمة والنبوة.

نعم، هناك عوامل أُخر لاكتساب الأرضيات الصالحة داخلة في إطار الاختيار وحرية الإنسان وإليك بعضها:

إنّ حياة الأنبياء من لدن ولادتهم إلى زمان بعثتهم مشحونة بالمجاهدات الفردية والاجتماعية، فقد كانوا يجاهدون النفس الأمّارة أشد الجهاد، ويمارسون تهذيب أنفسهم بل ومجتمعهم، فهذا هو يوسف الصدّيق عليه السلام جاهد نفسه الأمّارة وألجمها بأشد الوجوه عندما راودته من هو في بيتها ﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوابَ وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾فأجاب بالرد والنفي بقوله: ﴿مَعاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظّالِمُونَ﴾. وهذا موسى كليم الله وجد في مدين امرأتين تذودان واقفتين على بعد من البئر، فقدم إليهما قائلاً: ما خطبكما فقالتا: إنا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير، وعند ذلك لم يتفكر في شيء إلاّ في رفع حاجتهما، ولأجل ذلك سقى لهما ثم تولّى إلى الظل قائلاً : ﴿رَبِّ إِنّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾. وكم هناك من شواهد تاريخية على جهاد الأنبياء وقيامهم بواجبهم أبّان شبابهم إلى زمان بعثتهم التي تصدت لذكرها الكتب السماوية وقصص الأنبياء وتواريخ البشر.

فهذه العوامل، الداخل بعضها في إطار الاختيار والخارج بعضها عن إطاره أوجدت قابليات وأرضيات صالحة لإفاضة وصف العصمة عليهم وانتخابهم لذلك الفيض العظيم، فعندئذ تكون العصمة مفخرة للنبي صالحة للتحسين والتبجيل والتكريم.

وإن شئت قلت: إنّ الله سبحانه وقف على ضمائرهم ونيّاتهم ومستقبل أمرهم، ومصير حالهم وعلم أنّهم ذوات مقدسة، لو أُفيضت إليهم تلك الموهبة لاستعانوا بها في طريق الطاعة وترك المعصية بحرية واختيار، وهذا العلم كاف لتصحيح إفاضة تلك الموهبة عليهم بخلاف من يعلم من حاله خلاف ذلك) [١].

من الواضح أن القسم الأول من القابليات يشترك فيه أبناء الأنبياء والمعصومين جميعهم؛ المعصوم منهم وغير المعصوم، أما إذا شاء السبحاني أن يوحي لنا وإن من طرف خفي أن ثمة عناية إلهية خاصة بالمعصوم في هذا الشأن، فبماذا يجيب من يتهمه بالقول بالجبر ؟

وإذا قيل أن غير المعصومين من الأبناء هم من ضيع حظه، وإن الوراثة والتربية لهما تأثير. نقول: نحن لا ننكر تأثيرهما، ولكن ما قلتموه يؤكد كون دورهما لا يتمتع بصفة الحسم، ولا ينتج أثراً بمفرده، وإلا ما معنى أن يضيعوا حظهم من العصمة ؟

أما القسم الثاني: فيلاحظ عليه أن الأمثلة التي يسوقها لا تخدم غرضه، فالحادثة التي وقعت ليوسف سلام الله عليه كانت أبّان نبوته، أي إنه كان معصوماً، وواضح أن عصمته تعني اعتصامه بالله وعصمة الله له. وحتى زليخا لاحظت هذا المعنى، فقالت كما حكى القرآن قولها: ﴿**قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ**﴾[٢].

أقول: هذا، بعد ملاحظة أن الشيخ السبحاني أراد من ذكر الحادثة على أنها مثال لجهاد المعصوم الذي أهله لبلوغ درجة العصمة، أي أن المفروض هو أن كل هذا الجهاد كان سابقاً للعصمة، وسبباً لنيلها.

١- عصمة الأنبياء: ص٣٢ وما بعدها.
٢- يوسف: ٣٢.

أما مثال موسى عليه السلام فهو ضعيف كما لا يخفى، وكان بإمكان السبحاني أن يأتي بأمثلة أقوى كثيراً منه.

هذه الأمثلة، بل الفكرة برمتها تناقض مقولة أن المعصوم يكون معصوماً قبل بعثته، فكيف ذهل عنها الشيخ السبحاني ؟

بطبيعة الحال الفكرة لا غبار عليها، فالمعصومون بلغوا العصمة على أنها استحقاق، و لم تأتهم هبة دون مقابل قدموه. ولكن هذه النتيجة ربما لا يرتضيها الشيخ السبحاني، ولعله من أجل عدم الرضا هذا ساق كلاماً يقوضها من الأصل، وهو قوله: (وإن شئت قلت: إنّ الله سبحانه وقف على ضمائرهم ونيّاتهم ومستقبل أمرهم، ومصير حالهم وعلم أنّهم ذوات مقدسة، لو أُفيضت إليهم تلك الموهبة لاستعانوا بها في طريق الطاعة وترك المعصية بحرية واختيار، وهذا العلم كاف لتصحيح إفاضة تلك الموهبة عليهم بخلاف من يعلم من حاله خلاف ذلك) !

فالظاهر من كلامه هذا أن نضالات المعصومين وجهادهم لأنفسهم لا مدخلية لها في تحقق عصمتهم، فالعصمة جاءتهم هبة من الله العليم ببواطن عباده وما تنطوي عليه ضمائرهم.

* * *

عود على بدء :

واضح أن المتكلمين قد وقعوا في تناقضات كثيرة، وكان يكفيهم أن يقفوا عند ما قاله آل محمد عليهم السلام، فقولهم عليهم السلام : إن المعصوم (**هو المعتصم بحبل الله، وحبل الله هو القرآن لا يفترقان إلى يوم القيامة**)، لا يُبقي مساحة للقول بالجبر والإلجاء، فعصمته باختياره، وهو قد اختار الاعتصام بالله عزوجل فكان الله عند حسن ظنه.

فقد ورد في الكافي: محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن محمد بن إسماعيل بن بزيع، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، قال: (**أحسن الظن بالله، فإن الله عزوجل يقول: أنا عند ظن عبدي المؤمن بي، إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً**) [1].

١- الكافي - الشيخ الكليني: ج٢ ص٧٢ ح٣٠.

وفي كتاب البخاري: عن عطاء، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**إن الله قال من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته**) [١].

وقد ورد في أدعية المعصومين عليهم السلام طلبهم من الله جل وعلا أن لا يكلهم لأنفسهم طرفة عين أبداً، فقد ورد في الصحيفة السجادية: (دعاؤه عليه السلام في الاتكال على الله جل جلاله، قال زيد بن أسلم: كان من دعاء علي بن الحسين (عليهما السلام): **اللهم لا تكلني إلى نفسي فأعجز عنها، ولا تكلني إلى المخلوقين فيضيعوني**) [٢].

وورد في الكافي: محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن محمد بن سنان، عن سجيم، عن ابن أبي يعفور، قال: (سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول وهو رافع يده إلى السماء: "**رب لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً، لا أقل من ذلك ولا أكثر**" قال: فما كان بأسرع من أن تحدر الدموع من جوانب لحيته، ثم أقبل عليّ فقال: **يا ابن أبي يعفور، إن يونس بن متى وكله الله عز وجل إلى نفسه أقل من طرفة عين فأحدث ذلك الذنب**، قلت فبلغ به كفراً أصلحك الله ؟ قال: **لا، ولكن الموت على تلك الحال هلاك**) [٣].

وورد عن الإمام الحسين سلام الله عليه في دعاء عرفة المشهور: (**اللهم ما أخاف فاكفني، وما أحذر فقني، وفي نفسي وديني فاحرسني، وفي سفري فاحفظني، وفي أهلي ومالي وولدي فاخلفني، وفيما رزقتني فبارك لي، وفي نفسي فذللني، وفي أعين الناس فعظمني، ومن شر الجن والإنس فسلمني، وبذنوبي فلا تفضحني، وبسريرتي فلا تخزني، وبعملي فلا تبسلني، ونعمك فلا تسلبني، وإلى غيرك فلا تكلني، إلى من تكلني إلى القريب يقطعني، أم إلى البعيد يتهجمني، أم إلى المستضعفين لي، وأنت ربي ومليك أمري، أشكوا إليك غربتي**

١- صحيح البخاري – البخاري: ١٤٠١ - ١٩٨١م دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. طبعة بالأوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة بإستانبول ج٧ ص١٩٠.
٢- الصحيفة السجادية (ابطحي) - الإمام زين العابدين عليه السلام: ص١٤٥.
٣- الكافي - الشيخ الكليني: ج٢ ص٥٨١ ح١٥.

وبعد داري وهواني على من ملكته أمري. اللهم فلا تحلل بي غضبك، فإن لم تكن غضبت عليّ فلا أبالي سواك، غير أن عافيتك أوسع لي، فأسألك بنور وجهك الذي أشرقت له الأرض والسموات، وانكشفت به الظلمات، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين، أن لا تميتني على غضبك، ولا تنزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى من قبل ذلك، لا إله إلا أنت رب البلد الحرام، والمشعر الحرام، والبيت العتيق الذي أحللته البركة، وجعلته للناس أمنة) [1].

وكل هذه الأدعية منهم عليهم السلام تدل على اعتصامهم بالله تعالى، وأنهم لا يستغنون عنه عزّ وجلّ، فهو سبحانه العاصم لهم. وعصمته لهم ليست في حقيقتها سوى إجابة لتمسكهم واعتصامهم به، فلا وجه للقول بالجبر، فهم بإرادتهم تطلعوا لهذه المترلة ونالوا ثمارها، فهل من يسعى لنيل درجة الدكتوراه مثلاً في علم من العلوم وتمنحه الجامعة هذه الدرجة بعد أن تقدم منه ما استحق به نيلها يكون مجبوراً ؟

قال السيد أحمد الحسن عليه السلام جواباً على سؤال وُجه له:

(**السؤال/ ٧٤**: بسم الله الرحمن الرحيم، السيد أحمد الحسن عليه السلام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

لي صديقة سنية وقد طرحت عليَّ بعض الإشكالات التي حيرتني، وهي في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾.

هل أنّ الإرادة هنا تكوينية ؟ وإذا كانت كذلك هل تستلزم القول بالجبر ؟ وقد فسّر الإمام الباقر أو الصادق الرجس هنا بالشك فهل أنّ التطهير من الشك يعني العصمة ؟

المرسل: شيماء حسن علي

الجواب: بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآل محمد الأئمة والمهديين وسلم تسليماً.

١- موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام- لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام: ص٩٥٠ – ٩٥١.

نعم هي إرادة الله سبحانه وتعالى، التي قال عنها سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾[١]، ولكن تحقّق هذه الإرادة الإلهية في هذه الآية: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾[٢]، لا يكون بالقهر والإجبار على الطاعة وترك المعصية، بل بكشف الحقائق لهم بعد إخلاصهم له سبحانه وتعالى، وبعصمتهم بعد اعتصامهم به سبحانه وتعالى. فإذا كشفت حقيقة الدنيا لإنسان وأصبح يراها جيفة تتنازعها كلاب وعراق خترير في يد مجذوم [٣]، كيف يُقبل عليها ؟!! وهذا مثل ربما يوضح لك العصمة ومعناها: (فإذا كان هناك إنسان أعمى يريد عبور الطريق سالماً من عثرات الطريق لابد له أن يستنجد بإنسان بصير، ثم لابد له أن يُسلِّم للبصير معصم يده، ليأخذ البصير بمعصمه ويعينه على عبور الطريق بسلامة. وهنا في هذا المثل يكون الأعمى معتصم بالبصير، فالأعمى في هذا المثل معصوم، ويكون البصير عاصماً للأعمى). والأنبياء والأوصياء عليهم السلام هم الذين استنجدوا بالله ليأخذ بأيديهم إلى بر الأمان، وهم الذين مدّوا أيديهم لله ليأخذ بمعاصمهم [٤]. ولو أنّ عبداً في المشرق أو في المغرب فعل كما فعلوا واعتصم بالله لعصمه الله، ولكنَّ كثيراً من الناس قصّروا في اللجوء إلى الله ومد أيديهم إليه سبحانه، بل هم يدّعون أنّهم يعرفون ويرون الطريق بوضوح. والله سبحانه وتعالى يده ممدودة للناس جميعهم وعلى الدوام، فليس بينه وبين أحد منهم قرابة، بل هو خالقهم ولكن أيدي الناس وبإرادتهم مقبوضة عنه سبحانه [٥]) [٦].

* * *

١- يس: ٨٢.
٢- الأحزاب: من الآية ٣٣.
٣- قال الإمام علي عليه السلام: (والله لدنياكم هذه أهون في عيني من عراق خنزير في يد مجذوم) نهج البلاغة: ج٤ ص٥٢. والظاهر أن العراق هو العظم الذي نزع عنه اللحم. (المعلق).
٤- عن علي بن الحسين عليه السلام، قال: (**الإمام منا لا يكون إلا معصوماً، وليست العصمة في ظاهر الخلقة فيعرف بها، فلذلك لا يكون إلا منصوصاً.** فقيل له: يابن رسول الله فما معنى المعصوم ؟ فقال: **هو المعتصم بحبل الله، وحبل الله هو القرآن لا يفترقان إلى يوم القيامة، والإمام يهدي إلى القرآن والقرآن يهدي إلى الإمام، وذلك قول الله عز وجل: "إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ"**) بحار الأنوار: ج٥٢ ص١٩٤.
وعن الحسين الأشقر، قال: قلت لهشام بن الحكم: ما معنى قولكم: إن الإمام لا يكون إلا معصوماً، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن ذلك فقال: (**المعصوم هو الممتنع بالله من جميع محارم الله، وقد قال الله تبارك وتعالى: "وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ"**) بحار الأنوار: ج٥٢ ص١٩٤. (المعلق).
٥- عن صلى الله عليه وآله، أنه قال: (**إذا ادني العبد من الله، يدني الله إليه، ومن تقرب إليه شبراً تقرب إليه ذراعاً، ومن تقرب إليه ذراعاً تقرب إليه باعاً، ومن أتاه مشياً جاءه هرولة، ومن ذكره في ملا ذكره في ملا أشرف، ومن شكره شكره في مقام أسنى، وإذا أراد بعبد خيراً فتح عيني قلبه فيشاهد بها ما كان غائباً عنه**) مستدرك الوسائل - للميرزا النوري: ج٥ ص٢٩٧. (المعلق).
٦- الجواب المنير: ج٢.

تسديدهم عليهم السلام بروح القدس:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[4].

وأخرج الشيخ الكليني (رحمه الله) في باب (الروح التي يسدد الله بها الأئمة عليهم السلام)[5]:

عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن النضر بن سويد، عن يحيى الحلبي، عن أبي الصباح الكناني، عن أبي بصير، قال: (سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا

١- البقرة: ٨٧.
٢- البقرة: ٢٥٣.
٣- المائدة: ١١٠.
٤- النحل: ١٠٢.
٥- الكافي - الشيخ الكليني: ج١ ص٢٧٣ – ٢٧٤ ح١ – ٦.

الْإِيمَانُ﴾ قال: **خلق من خلق الله عز وجل أعظم من جبرئيل وميكائيل، كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله يخبره ويسدده وهو مع الأئمة من بعده**).

وفي الباب ذاته: محمد بن يحيى، عن محمد بن الحسين، عن علي بن أسباط، عن أسباط بن سالم، قال: (سأله رجل من أهل هيت وأنا حاضر عن قول الله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا﴾ فقال: **منذ أنزل الله عز وجل ذلك الروح على محمد صلى الله عليه وآله ما صعد إلى السماء، وإنه لفينا**).

وفيه كذلك: علي بن إبراهيم، عن محمد بن عيسى، عن يونس، عن ابن مسكان، عن أبي بصير، قال: (سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿سْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، قال: **خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل، كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وهو مع الأئمة، وهو من الملكوت**).

وفيه: علي، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن أبي أيوب الخزاز، عن أبي بصير، قال: (سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿سْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، قال: **خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل، لم يكن مع أحد ممن مضى، غير محمد صلى الله عليه وآله وهو مع الأئمة يسددهم، وليس كل ما طلب وجد**).

وكذلك: محمد بن يحيى، عن عمران بن موسى، عن موسى بن جعفر، عن علي بن أسباط، عن محمد بن الفضيل، عن أبي حمزة، قال: (سألت أبا عبد الله عليه السلام عن العلم، أهو علم يتعلمه العالم من أفواه الرجال أم في الكتاب عندكم تقرؤنه. فتعلمون منه ؟ قال: **الأمر أعظم من ذلك وأوجب، أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾** ثم قال: **أي شيء يقول أصحابكم في هذه الآية، أيقرون أنه كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان ؟** فقلت: لا أدري جعلت فداك ما يقولون، فقال [لي]: **بلى، قد كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان حتى بعث الله تعالى الروح التي ذكر في الكتاب، فلما أوحاها إليه علم بها العلم والفهم، وهي الروح التي يعطيها الله تعالى من شاء، فإذا أعطاها عبداً علمه الفهم**).

وفيه: محمد بن يحيى، عن محمد بن الحسين، عن علي بن أسباط، عن الحسين بن أبي العلاء، عن سعد الإسكاف، قال: (أتى رجل أمير المؤمنين عليه السلام يسأله عن الروح، أليس هو جبرئيل ؟ فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: **جبرئيل عليه السلام من الملائكة والروح غير جبرئيل**، فكرر ذلك على الرجل فقال له: لقد قلت عظيماً من القول، ما أحد يزعم أن الروح غير جبرئيل، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: **إنك ضال تروي عن أهل الضلال، يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله**: ﴿أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ﴾[1] **والروح غير الملائكة صلوات الله عليهم**).

وورد في بصائر الدرجات [2]: عن جابر الجعفي، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: (**يا جابر، إن الله خلق الناس ثلاثة أصناف وهو قول الله تعالى**: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً ۞ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۞ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۞ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۞ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[3]، **فالسابقون هو رسول الله صلى الله عليه وآله وخاصة الله من خلقه جعل فيهم خمسة أرواح: أيدهم بروح القدس فيه بعثوا أنبياء، وأيدهم بروح الإيمان فبه خافوا الله، وأيدهم بروح القوة فبه قووا على طاعة الله، وأيدهم بروح الشهوة فبه اشتهوا طاعة الله وكرهوا معصيته وجعل فيهم روح المدرج الذي يذهب به الناس ويجيئون وجعل في المؤمنين أصحاب الميمنة روح الإيمان فبه خافوا الله، وجعل فيهم روح القوة فبه قووا على الطاعة من الله، وجعل فيهم روح الشهوة فبه اشتهوا طاعة الله، وجعل فيهم روح المدرج التي يذهب الناس به ويجيئون**).

وفيه: (عن جابر، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن الروح، قال: **يا جابر، إن الله خلق الخلق على ثلث طبقات وأنزلهم ثلث منازل وبيّن ذلك في كتابه حيث قال: "وأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة والسابقون السابقون أولئك المقربون"، فأما ما ذكر من السابقين فهم أنبياء مرسلون وغير مرسلين جعل الله فيهم خمسة أرواح، روح القدس، وروح الإيمان، وروح القوة، وروح الشهوة، وروح**

١- النحل: ١ – ٢.
٢- بصائر الدرجات - محمد بن الحسن الصفار: ص٤٦٥ وما بعدها.
٣- الواقعة: ٧ – ١١.

البدن، وبيّن ذلك في كتابه حيث قال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[١]، ثم قال في جميعهم وأيدهم بروح منه فبروح القدس بعثوا أنبياء مرسلين وغير مرسلين، وبروح القدس علموا جميع الأشياء، وبروح الإيمان عبدوا الله ولم يشركوا به شيئاً، وبروح القوة جاهدوا عدوهم وعالجوا معايشهم، وبروح الشهوة أصابوا لذة الطعام ونكحوا الحلال من النساء، وبروح البدن يدب ويدرج، وأما ما ذكرت من أصحاب الميمنة فهم المؤمنون حقاً جعل فيهم أربعة أرواح: روح الإيمان، وروح القوة، وروح الشهوة، وروح البدن، ولا يزال العبد مستعملاً بهذه الأرواح الأربعة حتى يهمّ بالخطيئة فإذا همّ بالخطيئة زين له روح الشهوة وشجعه روح القوة وقاده روح البدن حتى يوقعه في تلك الخطيئة، فإذا لامس الخطيئة انتقص من الإيمان وانتقص الإيمان منه، فإن تاب تاب الله عليه، وقد يأتي على العبد تارات ينقص منه بعض هذه الأربعة وذلك قول الله تعالى: "ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئاً" فتنتقص روح القوة ولا يستطيع مجاهدة العدو ولا معالجة المعيشة، وينتقص منه روح الشهوة فلو مرت به أحسن بنات آدم لم يحن إليها، وتبقى فيه روح الإيمان ورح البدن فبروح الإيمان يعبد الله وبروح البدن ويدب ويدرج حتى تأتيه ملك الموت، وأما ما ذكرت أصحاب المشئمة فمنهم أهل الكتاب، قال الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[٢] عرفوا رسول الله صلى الله عليه وآله والوصي من بعده وكتموا ما عرفوا من الحق بغياً وحسداً فيسلبهم روح الإيمان، وجعل لهم ثلاثة أرواح: روح القوة، وروح الشهوة، وروح البدن، ثم أضافهم إلى الأنعام فقال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[٣]؛ لأن الدابة إنما تحمل بروح القوة وتعتلف بروح الشهوة ويسير بروح البدن).

وفيه: (عن عمار الساباطي، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام بما تحكمون إذا حكمتم ؟ فقال: بحكم الله وحكم داود، فإذا ورد علينا شيء ليس عندنا تلقانا به روح القدس).

١- البقرة: ٢٥٣.
٢- البقرة: ١٤٦ – ١٤٧.
٣- الفرقان: ٤٤.

وفيه: (حدثنا أحمد بن محمد، عن علي بن الحكم، عن سيف بن عميرة، عن أبي بصير، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الروح، قال: الروح من أمر ربي، فقال أبو عبد الله عليه السلام: **خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل وهو مع الأئمة يفقههم**، قلت: ونفخ فيه من روحه ؟ قال: **من قدرته**) [١].

من هذه الآيات الكريمات والأحاديث الواردة عن العترة الطاهرة يتضح بجلاء أن أولياء الله عز وجل مسددون بالروح القدس، فالروح القدس يعلمهم العلم والفهم والإيمان والكتاب.

والروح القدس كما قال الإمام الصادق عليه السلام: (**يعطيها الله تعالى من شاء**)، ولا يُفهم من هذا أن من يسدده الله بالروح القدس فاقد للاختيار، بل هو بإرادته اعتصم بالله فعصمه الله عز وجل بها. فليس كل أحد يسدده الله بالروح القدس، بل خصوص من تقدم منهم الإخلاص والطاعة فاستحقوا التسديد الإلهي.

يقول السيد أحمد الحسن عليه السلام: (روح القدس هو: **روح الطهارة أو العصمة**، فإذا أخلص العبد بنيته لله سبحانه وتعالى وأراد وجه الله أحبه الله ووكل الله به ملكاً يدخله في كل خير ويخرجه من كل شر ويسلك به إلى مكارم الأخلاق، ويكون روح القدس واسطة لنقل العلم للإنسان الموكل به، وأرواح القدس كثيرة وليست واحداً، والذي مع عيسى عليه السلام ومع الأنبياء دون الذي مع محمد صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام وفاطمة عليها السلام والأئمة عليهم السلام، وهذا هو روح القدس الأعظم لم يترل إلا مع محمد صلى الله عليه وآله، وانتقل بعد وفاته إلى علي عليه السلام ثم إلى الأئمة عليهم السلام ثم بعدهم إلى المهديين الاثني عشر) [٢].

ويقول كذلك: (فرسول الله محمد صلى الله عليه وآله لما نزل إلى هذا العالم الجسماني ليخوض الامتحان الثاني بعد الامتحان الأول في عالم الذر حُجب بالجسم المادي، فلما أخلص لله سبحانه وتعالى إخلاصاً ما عرفت الأرض مثله أحبه الله ووكل به روح القدس الأعظم، فكان الفائز بالسباق في هذا العالم كما كان الفائز بالسباق في الامتحان الأول في عالم الذر) [٣].

١- بصائر الدرجات - محمد بن الحسن الصفار: ص٤٨٣.
٢- المتشابهات – الأجزاء الأربعة: ص١٨٢.
٣- المصدر نفسه: ص١٨٣.

وقال عليه السلام: (**أما العصمة**: فهي درجات وليست واحدة كما يتوهم بعضهم، وكل واحد من الأنبياء والمرسلين والأئمة عليهم السلام اختص بدرجة من درجات العصمة بحسب اختياره هو. فالمعصوم هو: من اعتصم بالله عن محارم الله سبحانه وتعالى) [١].

وقوله عليه السلام: (بحسب اختياره) يُفهم منه والله أعلم أن الأمر مرتبط بإخلاص الإنسان، وتقربه من الله عز وجل، وطاعته له، فقد ورد في الحديث القدسي: (**من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً**).

* * *

العصمة درجات:

أما كون العصمة درجات فهذا ينبغي أن يكون واضحاً، فطالما كانت العصمة ثمرة الإخلاص والتقرب لله سبحانه وتعالى، فسيكون العبد معصوماً بمقدار إخلاصه وتقربه.

قال تعالى: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ**﴾ [٢].

وقال تعالى: ﴿**وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً**﴾ [٣].

وهذا التفضيل نتيجة لدرجة الإخلاص، ﴿**ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾ [٤].

يقول السيد أحمد الحسن عليه السلام: (العصمة هي: الاعتصام بالله عن محارم الله ولها جهة من العبد هي الإخلاص، وجهة من الرب سبحانه وهي التوفيق.

١- المصدر نفسه: ص٤٠.
٢- البقرة: ٢٥٣.
٣- الإسراء: ٥٥.
٤- الأنفال: ٥١.

فكل إنسان والحال هذه مودع في فطرته قابلية العصمة، وما يمتاز به الحجج عليهم السلام هو مقدار إخلاصهم، فهم قد وصلوا بالإخلاص لله سبحانه وتعالى إلى درجة أن يكون التوفيق النازل عليهم ولهم حصناً يحصنهم عن محارم الله. وأيضاً الحجج يمتازون أن من يعرف الحقائق ومآل كل إنسان وما يصير إليه قد نص على عصمتهم وأوجب إتباعهم؛ لأنهم لا يدخلون الناس في ضلال ولا يخرجونهم من هدى.

موسى عليه السلام نبي من أولي العزم من الرسل.

موسى عليه السلام نبي مرسل من الله معصوم منصوص العصمة.

ومع هذا يأمره الله سبحانه أن يتبع العبد الصالح ولا يخالفه وهو نفسه قد تعهد بعدم المخالفة ﴿**قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً**﴾ ولكنه أخلف وعده وخالف العبد الصالح.

ولو كانت المخالفة واحدة وفي مرة واحدة لهانت ولكنه خالف في كل الامتحانات والاختبارات، فهي كانت ثلاثة وخالف في ثلاثتها، يعني موسى عليه السلام هنا قد خالف أمر الله وإذا لم تشأ قول إنه خالف أمراً مباشراً فليكن إنه خالف تعهده، وهذا أكيد ينقض العصمة هنا وفي هذا الموقف.

ومن هذا الموقف وهذه الرحلة وما حصل فيها نستطيع أن:

نفهم معنى العصمة بوضوح.

ونفهم أيضاً أنها مراتب.

ونفهم أيضاً أنها بالنسبة لحجج الله منصوصي العصمة لها حد أدنى لا يمكن تجاوزه وهو الحد الذي يكونون فيه محققين لشرط النص على عصمتهم، وهو أنهم لا يخرجون الناس من هدى ولا يدخلونهم في باطل.

ونفهم أيضاً أن المعصوم عليه السلام إذا حمل على ما هو فوقه لن يكون معصوماً في تلك المرتبة التي لم يرتقِ لها.

ونفهم أيضاً أن هذا النقض على عصمة المعصوم في مرتبة أعلى من العصمة لا ينقض عصمته في المرتبة الأدنى.

ونفهم ونعرف أيضاً الجواب على معصية آدم التي حصلت وكيف أنها لا تنقض عصمته ﴿**وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى**﴾[١]، حيث إن اختباره كان في مرتبة أعلى ليتضح له ولغيره أنه ليس له عزم، وإن صاحب العزم وخليفة الله في أرضه حقاً هو من ذريته وهو محمد صلى الله عليه وآله، فالخليفة الحقيقي المراد أن يصار إليه هو محمد صلى الله عليه وآله وليس آدم، فالمراد هو خليفة الله المُرسِل لا خليفة الله المُرسَل [٢].

ونفهم أيضاً أن العلم والمعرفة هما أساس عصمة المعصوم، ولهذا فالمعصوم يعصم بقدر علمه ومعرفته التي هي بالحقيقة تعود إلى نفس الجهتين (الإخلاص التوفيق) ﴿**وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً**﴾[٣]، ومن هنا يكون سبب الفشل في مرتبة أعلى هو القصور العلمي والمعرفي للمعصوم عليه السلام عن الإحاطة بتلك المرتبة والمقام الأعلى.

ونفهم أيضاً لما خاطب الله بعض المعصومين بأنهم ظالمون في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ**﴾[٤] فهؤلاء الذين وصفوا بـ . (ظالم لنفسه) هم من ضمن المصطفين الذين أورثوا الكتاب وهم المعصومون، وظلمهم لأنفسهم في تقصيرهم في الارتقاء أو يمكن القول تقصير في الإخلاص منع من التوفيق في مرتبة أعلى، أو بالخصوص منع من إفاضة العلم والمعرفة لمرتبة أعلى. وهذا التقصير أكيد إنه ظلم للنفس؛ لأنه خسارة مقام أعلى وخسارة ارتقاء لمرتبة أعلى، وبالتالي أصبح الامتحان في تلك المرتبة الأعلى مقروناً بالفشل بالنسبة لهم [٥].

ونفهم أيضاً أن الامتحان في المرتبة الأعلى لا يكون في الفعل وعدمه بقدر ما يكون فيمن يقع عليه الفعل أي صاحب المرتبة الأعلى نفسه وما يتعلق به كعلمه ومعرفته، فكانت معصية

١- طه: ١٢١.
٢- ارجع إلى الملحق٤ ، وأيضاً تجد في كتاب النبوة الخاتمة تفصيلاً.
٣- طه: ١١٤.
٤- فاطر: ٣٢.
٥- ارجع إلى الملحق٥، وأيضاً في كتاب الجواب المنير ج٢ والمتشابهات تجد تفصيلاً.

آدم عليه السلام متعلقة بالشجرة والتعدي عليها أكثر من تعلقها بالثمرة، فالمعصية الحقيقية كانت التعدي على الشجرة لا أكل الثمرة ﴿**وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ**﴾[1]، والشجرة كانت محمداً وآل محمد عليهم السلام، وأيضاً بالنسبة لموسى عليه السلام كان الاعتراض على العالم هو الخطأ الذي كرره فلم يكن امتحانه في الأمور الثلاثة بقدر ما كان في العالم نفسه ﴿**قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ۞ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ۞ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً**﴾ تدبر الآيات جيداً وانتبه إلى كلمة (معي) أي إنه يقول له ما دمت مرافقاً لك ستغفل وترفض قيادتي لك.

فالحقيقة أن اعتراضات موسى عليه السلام كلها كانت اعتراضات على القيادة المعصومة التي يعرفها من الله ولهذا كانت ردود العالم على موسى عليه السلام قوية وشديدة، فلو كانت المسألة فقط متعلقة بجهل موسى عليه السلام بالأسباب لكان موسى عليه السلام معذوراً ولا داعي لمعاملة موسى عليه السلام بهذه الشدة.

ثم لو تدبرنا الآيات وكيف يعلل العالم سبب عدم صبر موسى عليه السلام معه بأنه الجهل به هو وعدم معرفته هو لأنه فوقه ومن مقام أعلى منه ﴿**وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً**﴾ يعني أنت لا تتمكن من الصبر معي لأنك لا تعرفني وليس كما يتوهم من يقرأ الآية ربما بأن المراد أن موسى عليه السلام يجهل أسباب أفعال العالم فقط ولهذا انظر ماذا كان جواب موسى عليه السلام وتدبره جيداً: ﴿**قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً**﴾ ولنتدبر قول موسى عليه السلام: ﴿**وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً**﴾، فالأمر متعلق بالعبد الصالح نفسه لا بأفعاله، فامتحان موسى عليه السلام كان بالعبد الصالح عليه السلام نفسه لا بأفعاله أي إن الامتحان كان نسخة من الامتحان الأول المعروف وهو امتحان الملائكة وإبليس بآدم عليه السلام، إنه امتحان بالسجود مرة أخرى تكرر مع موسى عليه السلام هذه المرة و لم يكن موسى عليه السلام رافضاً للسجود كإبليس (لعنه الله) وحاشاه عليه السلام من هذا، وأيضاً لم يكن معترضاً قبل السجود كالملائكة عليهم السلام، بل هو عليه السلام بادر إلى السجود ولكن رفع رأسه من سجوده ثلاث مرات، ويمكن أن تقول إنها ثلاث مرات متفاوتة؛ الأخيرة أقلها والذي يفهم هذا يعرف أن الفرق بين موسى عليه السلام والملائكة كبير وعظيم فموسى عليه السلام أفضل من الملائكة وهذا بيّن هنا، فالملائكة

١ـ البقرة: ٣٥، الأعراف: ١٩.

حُجّوا بعلم آدم قبل سجودهم له بينما موسى عليه السلام بادر للسجود دون سؤال ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾، فكيف لا يكون هذا الطاهر المقدس موسى عليه السلام نبياً من أولي العزم من الرسل وهذا هو حاله في الطاعة.

ونفهم أيضاً أن امتحان الأدنى بالأعلى لا يكون إلا بترول الأعلى إلى الأدنى، والحقيقة أن ارتقاء الأدنى إلى الأعلى غير ممكن من دون تبدل مرتبة الإخلاص المتعلقة به وبعمله، وبالتالي فالأمر محصور بترول الأعلى إلى الأدنى، وهنا يكون الامتحان، حيث إن المخلوق أو الإنسان بالخصوص يتوهم دائماً أن المتواجد معه في نفس مستواه مساو له أو دونه:

﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا﴾[١].

﴿قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[٢].

﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾[٣].

﴿مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[٤].

﴿وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[٥].

﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾[٦].

بل ولا يعتقد عادة أنه أعلى منه إلا عندما يجد ما يميزه بوضوح كالعلم مثلاً الذي جعل الملائكة تقرّ لآدم بالفضل، أو ربما يصل الأمر إلى أن الإنسان يريد ما يضطره إلى التصديق بهذا الفضل، ولهذا يطلب الجهلة وهم أكثر الناس المعجزات التي تقهرهم على الاعتقاد بأفضلية الرسل عليهم السلام ليؤمنوا بأفضليتهم وحقهم في القيادة ﴿مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

١- هود: ٢٧.
٢- إبراهيم: ١٠.
٣- المؤمنون: ٤٧.
٤- الشعراء: ١٥٤.
٥- الشعراء: ١٨٦.
٦- يس: ١٥.

وأكيد أنه كلٌ بحسبه فالأنبياء عليهم السلام أفضل من الملائكة، وليسوا كهؤلاء الجهلة ولكن الظلمة التي جعلت الملائكة يعترضون وجعلت أولئك الجهلة يكفرون بالرسل عليهم السلام أيضاً موجودة في الأنبياء عليهم السلام وفي موسى عليه السلام، ولكنها بمستوى ضئيل جعل موسى عليه السلام فقط يغفل ويعترض ليندم بعد لحظات على غفلته واعتراضه ﴿**قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً**﴾، التفت إلى قول موسى جيداً: ﴿**وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً**﴾ أي إن موسى يقول للعبد الصالح أنا هذا حالي وأنت تعرفه فلا تتركني وأكمل معي هذه الرحلة لأتعلم أكثر، ثم بعد هذا يغفل ويسأل فلا يجد إلا التعهد بأنه سيترك السؤال ولا يجد إلا الاعتراف: إنه غفل وفشل و لم يصبر مع العبد الصالح ﴿**قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً**﴾، ولهذا لم يكن كلام موسى عليه السلام في المرة الثالثة على شكل اعتراض أو سؤال بل هو اقتراح ﴿... **قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً**﴾) [1].

* * *

هل يسهو المعصوم أو ينسى؟

المعصوم هو من لا يُدخل الناس في باطل ولا يُخرجهم من حق. وهذا الحد من المعرفة كافٍ تماماً، ولا حاجة لنا بالخوض في أمور لا تعنينا معرفتها، ولا أن نشرق أو نغرب بمسائل لا علاقة لها بالغرض من وجود المعصوم بيننا.

فإذا كان الهدف هو إثبات ضرورة وجود من يقود البشرية إلى بر الأمان، وعلى وفق المنهج الإلهي، فالمقدار الذي يفي بهذه الحاجة هو أن يكون القائد معصوماً، بمعنى أن لا يدخلنا في باطل ولا يخرجنا من حق. أما الحديث عن كون المعصوم لا يسهو ولا ينسى فهو أمر فضلاً عن كونه يخالف عشرات النصوص القرآنية والحديثية، هو حديث زائد عن مقدار الحاجة، كما سنرى، ولكن لنبدأ أولاً بتذكير القارئ ببعض الآيات التي نصت على وقوع النسيان من المعصومين عليهم السلام.

قال تعالى على لسان يوشع وهو من أنبياء بني إسرائيل: ﴿**قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ**

١- رحلة موسى إلى مجمع البحرين - السيد أحمد الحسن: ص٥١ وما بعدها.

عَجَباً﴾[١]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً﴾[٢].

والناسي هنا يوشع وموسى (عليهما السلام).

وقال تعالى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾[٣].

هذا المقدار من الآيات يفي بالغرض، وإن كانت توجد آيات أخرى كثيرة تدل على المطلب، أما الأحاديث فمنها ما ورد في (الكافي) مرفوعاً إلى أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: (**إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله صلّى بالناس الظهر ركعتين، ثمَّ سها فسلّم، فقال له ذو الشمالين: يا رسول الله، أنزل في الصلاة شيء ؟! قال: وما ذاك ؟! قال: إنّما صلّيت ركعتين. فقال: رسول الله صلى الله عليه وآله: أتقولون مثل قوله ؟! قالوا: نعم. فقام صلى الله عليه وآله فأتمَّ بهم الصلاة، وسجد بهم سجدتي السهو...**).

وعن سعيد الأعرج، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: (**إنّ الله تبارك وتعالى أنام رسول الله صلى الله عليه وآله عن صلاة الفجر حتّى طلعت الشمس، ثم قام فبدأ فصلى الركعتين اللتين قبل الفجر، ثمّ صلّى الفجر، وأسهاه في صلاته، فسلّم في الركعتين**).

وعن الهروي، قال: قلت للرضا عليه السلام: يابن رسول الله، إن في الكوفة قوماً يزعمون أن النبي صلى الله عليه وآله لم يقع عليه السهو في صلاته، فقال: (**كذبوا لعنهم الله إن الذي لا يسهو هو الله الذي لا إله إلا هو**)[٤].

وعن الفضيل، قال : ذكرت لأبي عبد الله عليه السلام السهو فقال: (**وينفلت من ذلك أحد ؟ ربما أقعدت الخادم خلفي يحفظ عليّ صلاتي**)[٥].

١- الكهف: ٦٣.
٢- الكهف ٦١.
٣- الكهف: ٧٣.
٤- عيون أخبار الرضا - للصدوق: ج١ ص٢١٩، ومدينة المعاجز- للبحراني: ج٧ ص١٥٥، وبحار الأنوار- للمجلسي: ج٧١ ص١٠٥ وج٥٢ ص٣٥٠ وج٤٤ ص٢٧١، ودرر الأخبار: ص٣١٢.
٥- بحار الأنوار: ج٢٥ ص٣٥٠.

وتوجد روايات كثيرة غيرها لم أذكرها خشية التطويل، ولأن الغرض يتحقق بما ذكرت، وهذه الروايات كما هو جلي تنص على وقوع السهو من المعصوم، وأن من لا يسهو هو الله الذي لا إله إلا هو، فما الذي دفع بعض العلماء إلى القول بخلاف ما نصت عليه ؟

وإليك الآن بعض أقوالهم في المسألة:

قال الشيخ المفيد في المسائل الجارودية: (ومنها: أن الإمام معصوم من العصيان مأمون عليه السهو والنسيان. لفساد الخلق بسياسة من يقارف الآثام، ويسهو عن الحق في الأحكام، ويضل عن الصواب وحاجة من هذه صفته إلى رئيس يكون من ورائه لينبهه عند الغفلة ويقومه عند الاعوجاج) [١].

وقال في كتاب النكت الإعتقادية: (فإن قيل: هذا النبي الذي أثبتموه معصوم أم لا ؟ فالجواب: معصوم من أول عمره إلى آخره عن السهو والنسيان والذنوب الكبائر والصغائر عمداً وسهواً) [٢].

وعلل قوله في كتاب عدم سهو النبي ﷺ، بقوله: (ولأنّا وجدنا الحكماء يجتنبون أن يودعوا أموالهم وأسرارهم ذوي السهو والنسيان، ولا يمتنعون من إيداع ذلك من يغلبه النوم أحيانا، كما لا يمتنعون من إيداعه من يعتريه الأمراض والأسقام. ووجدنا الفقهاء يطرحون ما يرويه ذوو السهو من الحديث، إلا أن يشركهم فيه غيرهم من ذوي التيقظ، والفطنة، والذكاء، والحصافة) [٣].

أما في أوائل المقالات، فقد قال: (القول في عصمة الأئمة عليهم السلام وأقول: إن الأئمة القائمين مقام الأنبياء ﷺ في تنفيذ الأحكام وإقامة الحدود وحفظ الشرائع وتأديب الأنام معصومون كعصمة الأنبياء، وإنهم لا يجوز منهم صغيرة إلا ما قدمت ذكر جوازه على الأنبياء، وإنه لا يجوز منهم سهو في شيء في الدين ولا ينسون شيئاً من الأحكام، وعلى هذا مذهب سائر الإمامية إلا من شذ منهم وتعلق بظاهر روايات لها تأويلات على خلاف ظنه الفاسد من هذا

١- المسائل الجارودية - الشيخ المفيد: ص٤٥.
٢- النكت الإعتقادية - الشيخ المفيد: ص٣٧.
٣- عدم سهو النبي ﷺ - الشيخ المفيد: ص٢٨.

الباب، والمعتزلة بأسرها تخالف في ذلك وتجوز من الأئمة وقوع الكبائر والردة عن الإسلام)[١].

وقال الشيخ الطوسي في (الاستبصار) تعليقاً على حديث ذي الشمالين وسهو النبي، ما نصه: (وذلك ممّا تمنع منه الأدلة القاطعة في أنّه لا يجوز عليه السهو والغلط) [٢].

أما الحر العاملي فبعد أن نقل بعضاً من أحاديث السهو، علق قائلاً: (ذكر السهو في هذا الحديث وأمثاله محمول على التقية في الرواية كما أشار إليه الشيخ وغيره، لكثرة الأدلة العقلية والنقلية على استحالة السهو عليه مطلقاً. وقد حقّقنا ذلك في رسالة مفردة وذكرنا لذلك محامل متعددة) [٣].

وقال رداً على الشيخ الصدوق في كلامه الذي سنذكره بعد قليل: (يردُ على الشيخ ابن بابويه في النقطة الأولى مما حصرنا فيه رأيه: من أين له هذا التقسيم للعبادة، وإنّه يجوز في أحدها السهو، ولا يجوز في الأخرى، مع إطلاق الروايات في العصمة وقيام الدليل عليها مطلقاً كذلك ؟ ولو (جاز السهو والنسيان من المعصوم في العبادة، لجاز في التبليغ. والفرق ليس عليه دليل قاطع، ولا يفهمه كلُّ أحد، بل كل من وقف على أحدهما جوّز الآخر قطعاً. وأقلّهُ أنّ الأكثر الأغلب لا يُفرِّقون بينهما، فلا يوثَقُ بشيءٍ من أقواله، وأفعاله، وتختلُّ عصمته، وهو باطل قطعاً) [٤].

وقال صاحب طرائف المقال: (وأن الأنبياء معصومون عن الخطأ والسهو والمعصية صغيرها وكبيرها من أول العمر إلى آخره، وإلا لارتفع الوثوق عن إخباراتهم وانتفت فائدة بعثتهم ولزم التغير عنهم. وأن الأئمة معصومون كالأنبياء يقومون مقامهم في إرشاد الناس ووجوب إتباعهم، وأنه منصوص عليهم من الله ورسوله؛ لأن العصمة لطف خفي لا يعلمه إلا الله. وأنهم الإثنا عشر ليسوا بأقل ولا أكثر، والثاني عشر هو الإمام القائم المنتظر المهدي المطابق اسمه وكنيته ولقبه مع النبي الأمي صلى الله عليه وآله. هذه خلاصة مذهب الإمامية في الأصول) [٥].

١- أوائل المقالات للمفيد: ص٦٥.
٢- الاستبصار: ج١ ص٣٧١.
٣- وسائل الشيعة - الحر العاملي: ج٨ ص١٩٩.
٤- التنبيه بالمعلوم|الشيخ الحرّ العاملي: ص١١١. نقلاً عن العصمة - مركز الرسالة: ص٦٠.
٥- طرائف المقال - السيد علي البروجردي: ج٢ ص٢٨٧.

وقال المظفر: (عقيدتنا في عصمة الإمام: ونعتقد أن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصوماً من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن، من سن الطفولة إلى الموت، عمداً وسهواً. كما يجب أن يكون معصوماً من السهو والخطأ والنسيان) [1].

هذا الرأي الذي ذهب له الأكثر من علماء ومتكلمي الشيعة، يقابله قول آخر قال به بعض كبار علماء الشيعة، مستنداً على ما ورد من نصوص كثيرة.

فالشيخ الصدوق بعد أن ينقل رواية سهو النبي وصلاته الظهر ركعتين، يقول: (قال مصنف هذا الكتاب (رحمه الله): إن الغلاة والمفوضة (لعنهم الله) ينكرون سهو النبي ﷺ ويقولون: لو جاز أن يسهو ﷺ في الصلاة لجاز أن يسهو في التبليغ؛ لأن الصلاة عليه فريضة كما أن التبليغ عليه فريضة. وهذا لا يلزمنا، وذلك لأن جميع الأحوال المشتركة يقع على النبي ﷺ فيها ما يقع على غيره، وهو متعبد بالصلاة كغيره ممن ليس بنبي، وليس كل من سواه بنبي كهو، فالحالة التي اختص بها هي النبوة والتبليغ من شرائطها، ولا يجوز أن يقع عليه في التبليغ ما يقع عليه في الصلاة؛ لأنها عبادة مخصوصة والصلاة عبادة مشتركة، وبها تثبت له العبودية وبإثبات النوم له عن خدمة ربه ﷻ من غير إرادة له وقصد منه إليه نفي الربوبية عنه؛ لأن الذي لا تأخذه سنة ولا نوم هو الله الحي القيوم، وليس سهو النبي ﷺ كسهونا؛ لأن سهوه من الله ﷻ، وإنما أسهاه ليُعلم أنه بشر مخلوق فلا يُتخذ رباً معبوداً دونه، وليعلم الناس بسهوه حكم السهو متى سهوا، وسهونا من الشيطان وليس للشيطان على النبي ﷺ والأئمة صلوات الله عليهم سلطان ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ وعلى من تبعه من الغاوين، ويقول الدافعون لسهو النبي ﷺ: إنه لم يكن في الصحابة من يقال له: ذو اليدين، وإنه لا أصل للرجل ولا للخبر وكذبوا لأن الرجل معروف وهو أبو محمد بن عمير بن عبد عمرو المعروف بذي اليدين وقد نقل عن المخالف والمؤالف، وقد أخرجت عنه أخبار في كتاب وصف القتال (كذا) القاسطين بصفين. وكان شيخنا محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد رحمه الله يقول: أول درجة في الغلو نفي السهو عن النبي ﷺ، ولو جاز أن ترد الأخبار الواردة في هذا المعنى لجاز أن ترد جميع الأخبار وفي ردها إبطال الدين والشريعة.

١- عقائد الإمامية للمظفر: ص٦٧.

وأنا أحتسب الأجر في تصنيف كتاب منفرد في إثبات سهو النبي صلى الله عليه وآله والرد على منكريه إن شاء الله تعالى) [١].

وينقل البحراني عن كتاب الأنوار النعمانية للسيد نعمة الله الجزائري، قوله: (إن أكثر أصحابنا قد تبعوا جماعة من المخالفين من أهل الرأي والقياس ومن أهل الطبيعة والفلاسفة وغيرهم من الذين اعتمدوا على العقول واستدلالاتها، وطرحوا ما جاءت به الأنبياء عليهم السلام حيث لم يأت على وفق عقولهم، حتى نقل أن عيسى (على نبينا وآله وعليه السلام) لما دعا أفلاطون إلى التصديق بما جاء به أجاب بأن عيسى رسول إلى ضعفة العقول، وأما أنا وأمثالي فلسنا نحتاج في المعرفة إلى إرسال الأنبياء. والحاصل أنهم اعتمدوا في شيء من أمورهم إلا على العقل، فتابعهم بعض أصحابنا وإن لم يعترفوا بالمتابعة، فقالوا: إنه إذا تعارض الدليل العقلي والنقلي طرحنا النقلي أو تأولناه بما يرجع إلى العقل. ومن هنا تراهم في مسائل الأصول يذهبون إلى أشياء كثيرة قد قامت الدلائل النقلية على خلافها. لوجود ما تخيلوا أنه دليل عقلي، كقولهم بنفي الإحباط في العمل تعويلا على ما ذكروه في محله من مقدمات لا تفيد ظنا فضلا عن العلم، وسنذكرها إن شاء الله تعالى في أنوار القيامة. مع وجود الدلائل من الكتاب والسنة على أن الإحباط الذي هو الموازنة بين الأعمال وإسقاط المتقابلين وإبقاء الرجحان حق لا شك فيه ولا ريب يعتريه، ومثل قولهم: إن النبي صلى الله عليه وآله لم يحصل له الاسهاء من الله تعالى في صلاة قط، تعويلاً على ما قالوه من أنه لو جاز السهو عليه في الصلاة لجاز عليه في الأحكام، مع وجود الدلائل الكثيرة من الأحاديث الصحاح والحسان والموثقات والضعفاء والمجاهيل على حصول مثل هذا الاسهاء، وعلل في تلك الروايات بأنه رحمة للأمة؛ لئلا يعير الناس بعضهم بعضا بالسهو) [٢].

ويقول الوحيد البهبهاني كما ينقل الشيخ السبحاني : (اعلم أن الظاهر أن كثيراً من القدماء سيما القميين منهم والغضائري كانوا يعتقدون للأئمة عليهم السلام مترلة خاصة من الرفعة والجلالة، ومرتبة معينة من العصمة والكمال بحسب اجتهادهم ورأيهم، وما كانوا يجوزون التعدي عنها، وكانوا يعدون التعدي ارتفاعاً وغلوا حسب معتقدهم، حتى إنهم جعلوا مثل

١- من لا يحضره الفقيه - الشيخ الصدوق: ج١ ص٣٥٩ – ٣٦٠.
٢- الحدائق الناضرة - المحقق البحراني: ج١ ص١٢٦ وما بعدها.

نفي السهو عنهم غلواً، بل ربما جعلوا مطلق التفويض إليهم أو التفويض الذي اختلف فيه كما سنذكر أو المبالغة في معجزاتهم ونقل العجائب من خوارق العادات عنهم، أو الإغراق في شأنهم وإجلالهم وتتريههم عن كثير من النقائص، وإظهار كثير قدرة لهم، وذكر علمهم بمكنونات السماء والأرض (جعلوا كل ذلك) ارتفاعاً أو مورثاً للتهمة به، سيما بجهة أن الغلاة كانوا مختفين في الشيعة مخلوطين بهم مدلسين) [١].

واضح من كلمات من نفوا السهو والنسيان عن المعصوم أنهم انطلقوا من فكرة أن وظيفة المعصوم هي أن يهدي الأمة، فإذا ما سها أو نسي فإنه سيُضل الأمة، وهذا خلاف المفروض، وعليه تقتضي الضرورة أن لا ينسى ولا يسهو.

ولكن هذه النتيجة أكبر بكثير من غرضهم، إذ يكفيهم لتحقيقه أن يجوزوا السهو والنسيان على المعصوم ويوافقوا بذلك القرآن والسنة، على أن يلاحظوا أنه يستدرك بعد سهوه أو نسيانه، واستدراكه هذا جزء من عصمته، بمعنى أنه وهو المعتصم بالله تعالى يعصمه الله ﷻ ويُذكّره فلا يُدخل الأمة في ضلال ولا يُخرجها من هدى.

وهذا المعنى هو ما دلت عليه الروايات، من قبيل ما رواه الصفار، قال: حدثنا السندي بن محمد، عن صفوان، عن عبد الله بن سعد الإسكاف، عن حريز، عن محمد بن عمر بن الحسن عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: (**من سره أن يحيى حياتي ويموت ميتتي ويدخل الجنة لي وعدني ربي قضيب من قضبانه غرسه بيده ثم قال له كن فكان فليتول علي بن أبي طالب عليه السلام من بعدي والأوصياء من ذريتي، فإنهم لا يخرجونكم من هدى ولا يعيدونكم في ردى ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم**) [٢].

وعن أبي الحسن بن الرضا عليه السلام، قال: (قال رسول الله ﷺ: **من أحب أن يحيى حياتي ويموت مماتي ويدخل جنة عدن التي وعدني ربي قضيب من قضبانه غرسه بيده ثم قال له كن فكان فليتول علي بن أبي طالب عليه السلام والأوصياء من بعده فإنهم لا يخرجونكم من هدى ولا يدخلونكم في ضلالة**) [٣].

١- كليات في علم الرجال - الشيخ السبحاني: ص٩٣ – ٩٤.
٢- بصائر الدرجات - محمد بن الحسن الصفار: ص٧٠.
٣- المصدر نفسه: ص٧١ – ٧٢.

ويحسن في هذا الصدد الإصغاء لكلمات السيد أحمد الحسن عليه السلام، فهي تكشف حقيقة هذا الموقف وتوضح أبعاده بصورة تقطع على المعتذرين عذرهم.

قال عليه السلام: (إذن، يوشع عليه السلام وصي موسى عليه السلام ومعصوم، ومع هذا ﴿**قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ**﴾، فنسيانه للحوت ثابت في القرآن ولكن هذا النسيان لا يخرجه من دائرة العصمة؛ لأن النسيان وإن وقع لعلة الظلمة (الشيطان) الموجودة في صفحة يوشع عليه السلام ولكنه وقع ضمن إرادة ومشيئة الله حتماً، ولما كانت إرادة الله ومشيئته أن يعصم يوشع عليه السلام فلن يكون لهذا النسيان تأثير سلبي بل على العكس شاء الله سبحانه وتعالى الذي يبدل السيئات بالحسنات بجوده وكرمه أن يقلب هذا الحدث الذي وقع بسبب الشيطان أي الظلمة إلى خير وبركة وعاقبة حسنة تؤدي إلى أن يكون هذا النسيان سبباً لمعرفة العبد الصالح والوصول له، وهو كان الهدف الذي يطلبه موسى عليه السلام: ﴿... **وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾[١].

أما ما يتوهمه بعضهم أن المعصوم لا يغفل أو لا ينسى مطلقاً فهذا منقوض ببساطة؛ لأن لازم قولهم هذا إن المعصوم نور لا ظلمة فيه، وهذا باطل؛ لأن النور الذي لا ظلمة فيه هو الله سبحانه وتعالى (اللاهوت المطلق) فيبقى أن المعصوم نور وشائبة ظلمة وهي هوية وجوده ولها تأثير في حركته، وكونها ظلمة فيكون أثرها نسياناً وغفلة وغيرها مما يطرأ على المخلوق، ولكن في هذا العبد المخلص (المعصوم) يكون وجود هذه الأمور أقل ما يمكن وربما لا تكاد تذكر في بعض الحالات، ولكنها تبقى موجودة ويمكن أن تحصل كما مر في حادثة نسيان يوشع عليه السلام.

وهذه الظلمة التي سببت النسيان هي التي عبر عنها يوسف عليه السلام ويوشع عليه السلام بأنها الشيطان ﴿**وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ**﴾[٢]، ﴿**قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً**﴾[٣]، والشيطان هنا يعني

١- يوسف: ٢١.
٢- يوسف: ٤٢.
٣- الكهف: ٦٣.

الشر (وشائبة الظلمة) وليس كما يتوهم بعضهم أن المقصود إبليس والعياذ بالله، فليس لإبليس سلطان على يوشع عليه السلام وحركته؛ لأنه محفوظ عن وصول هذا الخبيث إليه وإضلاله عن سواء السبيل ﴿**إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ۞ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً**﴾[1].

وبالتالي فالمعصوم معصوم بغيره بالله سبحانه وتعالى لا أنه معصوم بنفسه أو عاصم لنفسه كما توهموا، فالمعصوم هو المعتصم بالله عن محارم الله، فالله هو الذي يعصمه؛ لأنه فقير وناقص وهويته الظلمة فلا يمكن أن يستغني بنفسه لا ابتداءً ولا دواماً وبقاءً، وبالتالي ففي أي آن يكون لشائبة الظلمة تأثير على هذا الإنسان المخلص، ولكن تأثيرها ضئيل ومواجه بالنور المهيمن على صفحة وجود هذا العبد المخلص، فلا يكون لها أثر يجعل هذا العبد يخرج من هدى أو يدخل في ضلال، هذه هي العصمة في العوالم العلوية: أن يكون النور في صفحة وجود المعصوم بقدر مهيمن على شائبة الظلمة في صفحة وجوده بحيث لا يكون لشائبة الظلمة أثر يسبب له الخروج من هدى أو الدخول في ضلال.

وتوضيح أكثر أقول: إن صفحة وجود الإنسان هي ظلمة ونور فكلما علم وعمل وأخلص الإنسان زاد النور في صفحة وجوده وانحسرت الظلمة حتى تكون شائبة، ويكون أثرها ضئيلاً لا يخرج الإنسان من هدى ولا يدخله في ضلال، وهذه هي العصمة.

وحري الالتفات إلى أن الله سبحانه وتعالى لم ينسب النسيان إلى يوشع عليه السلام فقط بل إلى موسى عليه السلام أيضاً ﴿**فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا**﴾ وهو الحق، فإذا كان يوشع عليه السلام قد نسي باعتباره المسؤول المباشر عن حمل الحوت فموسى عليه السلام أيضاً مسؤول عن هذا النسيان؛ لأنه القائد، بل مسؤولية موسى عليه السلام أكبر ونسبة النسيان له أحق وحق من عند الحق.

ولتتم الفائدة أنقل هذا النص من كتاب (إضاءات من دعوات المرسلين ج٣ ق١): (قال يوسف عليه السلام للسجين ﴿**اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ**﴾ وسبب التفات يوسف للأسباب هو الشيطان ﴿**فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ**﴾ فكانت النتيجة ﴿**فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ**﴾[2]، وهذا

١- الجن: ٢٧ - ٢٨.
٢- يوسف: ٤٢.

الشيطان (أي الشر) هو الظلمة التي لا يخلو منها مخلوق فالنور الذي لا ظلمة فيه هو الله سبحانه ومع أن هذه الظلمة قليلة في كيانات الأنبياء النورانية المقدسة ولكنها موجودة ولها أثر على حركتهم عليهم السلام، ولهذا فهم يحتاجون إلى العصمة من الله ﴿**إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ۞ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً**﴾[١].

فلولا هذه الظلمة لما احتاجوا إلى العصمة، ومن يعتقد غير هذا فهو يترلهم مترلة الله سبحانه عما يشركون، وهذه المغالاة في التتريه لهم عليهم السلام حتى يوصلهم بعض من يجهل الحقيقة إلى مرتبة نور لا ظلمة فيه هي شرك يخطأ من يعتقده، كما أن من يستخف بعصمتهم وبحقهم ومرتبتهم يكفر بحقهم ويخطأ، وقد بين سبحانه في القرآن أثر هذه الظلمة في مسيرة الأنبياء في مواضع كثيرة، قال تعالى: ﴿**قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً**﴾[٢]، والذي نسى وأنساه الشيطان هو فتى موسى عليه السلام وهو يوشع بن نون نبي من أنبياء بني إسرائيل ووصي موسى عليه السلام الذي فتح الأرض المقدسة، ومع هذا فلابد من ملاحظة أنّ الله سبحانه وتعالى جعل الأنبياء محط نظره فحتى ما يحصل بسبب هذه الظلمة يكون في النتيجة سبباً يوصلهم ﴿**وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً**﴾، فأصبح نسيان الحوت سبباً دلهم على العالم عليه السلام ﴿**قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً**﴾[٣].

أو يزيد علمهم ﴿**قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ**﴾[٤]، فبعد أن تعلم داود عليه السلام من هذه الحادثة أن لا يتكلم إلا بعد أن يسمع الخصمين خاطبه تعالى: ﴿**يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ**

١- الجن: ٢٧ – ٢٨.
٢- الكهف: ٦٣.
٣- الكهف: ٦٤.
٤- ص: ٢٤.

فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[1]) [2].

وقال عليه السلام: (لابد أن نعرف كيف تكون الذاكرة والمعلومات عند الإنسان لكي نعرف ما يترتب عليها وهو النسيان أو الغفلة عما فيها أو بعضه.

فمعلومات الإنسان يأتي بعضها من هذا العالم الجسماني عن طريق البصر والسمع مثلاً، ويأتي بعضها من الملكوت الأعلى ومثال ما يأتي من الأعلى هو الوحي للأنبياء عليهم السلام والرؤيا الصادقة.

وهذه المعلومات تنطبع في صفحة الإنسان أو يمكنك تسميته موضع الذاكرة أو المعلومات، وهو في النفس الإنسانية (الروح) وليس في الجسد كما يتوهم كثير من الناس انه في الدماغ، بل الدماغ هو تماماً كجهاز الفاكس أو التلفون فهو ليس موضع حفظ المعلومات الدائم، بل هو جهاز يوصل المعلومات من وإلى وجود الإنسان في هذا العالم الجسماني.

وهذه المعلومات ما دام الإنسان في هذا العالم فهي في زيادة مستمرة فمثلاً ما تراه بعينك وتدركه وما تستمعه بأذنك وما تقرأه هي معلومات متراكمة في النفس الإنسانية، والتذكر هو استخراج هذه المعلومات وحضورها عند الإنسان في هذا العالم عند إرادته ذلك.

أما ما يؤثر في هذا التذكر أو تحصيل المعلومة واستخراجها من الذاكرة فهي عدة أمور منها:

أولا: كم المعلومات، وأثر كم المعلومات على التذكر بين من خلال الواقع الذي نعيشه، فقدرة الطفل مثلاً على الحفظ أكبر بكثير من الكبار، والحفظ ما هو إلا تذكر للمعلومة وسبب قدرة الطفل الفائقة على التذكر هو فراغ ذاكرته من المعلومات تقريباً عند بدء التذكر عنده، وبالتالي فكم المعلومات المتراكم عنده مع مرور الوقت في البداية سيكون تحت السيطرة حيث يكون من السهل فرزه والوصول إلى المعلومة بعكس الكبير الذي تراكم عنده كم هائل من المعلومات يصعب السيطرة عليه. ولتتوضح مسألة الكم أكثر أقول : لو كان عندك شيء

١- ص: ٢٦.
٢- رحلة موسى إلى مجمع البحرين - السيد أحمد الحسن عليه السلام: ص٢٧ وما بعدها.

تبحث عنه فإن وصولك إليه سيكون أسهل لو بحثت عنه بين عشرة أشياء مما لو بحثت عنه بين مائة.

ثانياً: الكيف أو نوع المعلومات، حيث إنّ المعلومة البسيطة ليست كالمعلومة المركبة والمعقدة، فالأخيرة ربما توضع في الذاكرة بصورة غير منظمة وعشوائية نتيجة عدم الإدراك الكلي والتام لها، وبالتالي يصعب تذكرها أو إخراجها بصورة صحيحة أو بكل جزئياتها ولوازمها بل حتى مع إدراكها ووضعها بشكل منظم ودقيق فإن تذكرها يكون أكثر صعوبة من المعلومة البسيطة؛ لأن تذكرها يحتاج إلى تذكر كل أجزائها.

ثالثاً: الجسد، وهو حجاب يؤثر على تذكر الإنسان ويكون بمثابة غطاء على المعلومات يزداد سماكة كلما زاد الانشغال به لجلب الملائمات له ودفع المنافيات عنه، ويخف كغطاء على المعلومات كلما غُفل عنه لحساب التركيز على المعلومة ولكنه مهما أُغفل يبقى حجاباً وله أثر حيث إنّ هناك ما لابد منه كالأكل للقوة.

رابعاً: النور والظلمة في نفس الإنسان، فكلما زاد النور زادت القدرة على التذكر، وأيضاً كلما قل النور وزادت الظلمة قلّت القدرة على التذكر، ولهذا فيوشع عليه السلام النبي الطاهر عليه السلام ماذا نتوقع منه غير أن يتهم نفسه بالقصور والتقصير ﴿**قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ**﴾ أي الظلمة.

خامساً: الدماغ باعتباره جهاز النقل إلى هذا العالم ومنه، فهو يؤثر تأثيراً كبيراً على مسألة التذكر فحركة الدم الصحيحة فيه ووصول الغذاء الملائم له مثلاً تجعله أكثر كفاءة، وحدوث خلل فيه أو مرض قد يؤدي إلى فقدان القدرة على التذكر كلياً أو جزئياً، مؤقتاً أو دائماً.

وهناك أمر أيضاً لابد من الالتفات له وهو أن تكون المعلومة مُحَصَّلَة فعلاً أي إن الإنسان قصد تحصيلها لا أنها مرت على أذنه مثلاً دون أن يستمعها، بل هو سمعها دون التفات منه إليها كما لو أنه مر بمكان ورآه ولكنه لم يهتم لإدراك تفاصيل ما يرى، فهذه غير واقعة ضمن مسألة التذكر لأنها أصلاً ليست معلومات مُحَصَّلَة ليتم تذكرها أو يوصف من غفل عنها بأنه نسيها.

هذه الأمور التي ذكرتها لها علاقة مباشرة بالتذكر سلباً أو إيجاباً، ولكن عادة عند إنسان معين لا تؤثر جميعها بنفس القدر والاتجاه:

فمثلاً يمكن أن يجتمع في إنسان واحد: الانشغال بالجسد الذي يؤثر سلباً على قدرة الإنسان على تحصيل المعلومة من الملكوت فضلاً عن تذكرها فيما بعد، مع زيادة النور في صفحة وجود الإنسان الذي يوثر إيجاباً على قدرة الإنسان على تحصيل المعلومة فضلاً عن تذكرها، وأيضاً قدر هذا الانشغال وقدر هذا النور داخل في معادلة التذكر [١].

ولهذا فمسألة التذكر عبارة عن معادلة وفيها عدد من المتغيرات ومنها الخمسة المذكورة أعلاه، ومن الصعب جداً بل هو مستحيل عادة أن نعرف ناتج هذه المعادلة من خلال معرفة القيمة الحقيقية أو التقريبية لواحد أو اثنين من هذه المتغيرات، بل لابد من معرفة قيمة كل متغير منها لتحصيل النتيجة النهائية أي إننا لا يمكن أن نحكم على مؤمن صالح فقط لمعرفتنا انه مؤمن صالح بأنّ درجة تذكره عالية أو أن نحكم على غير مؤمن طالح فقط لأنه غير مؤمن بأنّ درجة تذكره واطئة، فيمكن أن يكون إنسان غير مؤمن وقيمة المتغير المتعلق بالنور له خمسة بالمائة مثلاً ولكن المتغيرات الأخرى قيمتها عنده عالية لصالح التذكر، وبهذا يكون هذا الإنسان غير المؤمن قد حقق قيمة عالية في معادلة التذكر، ويكون صاحب قدرة فائقة على التذكر رغم كونه غير مؤمن.

والأمر المهم الذي لابد أن نلتفت إليه ونعيه بشكل دقيق أنه لا يمكن لمخلوق أن يحقق ويحصل من هذه المعادلة قيمة كاملة وتامة ليوصف بأن درجة تذكره هي مائة بالمائة، والسبب أنه لا يمكن لمخلوق أن يحقق قيمة مائة بالمائة في كل المتغيرات، وعلى سبيل المثال: متغير النور فإن فرض تحقيق مائة بالمائة فيه يعني أن هذا المخلوق نور لا ظلمة فيه وهذا محال لأن النور الذي لا ظلمة فيه هو الله سبحانه وتعالى [٢].

١- ومثاله: عبد مؤمن صالح عابد ولكنه يملأ بطنه بالطعام في بعض الأحيان ... فالنور الذي حصله من الإيمان والصلاح والعبادة يؤثر إيجاباً، وأيضاً كلما زادت العبادة مثلاً زاد النور فالمسألة ليست ثابتة عند حد معين ... بينما كونه يملأ بطنه بالطعام في بعض الأحيان يؤثر سلباً على التذكر، وكلما زادت تلك الأوقات التي تكون فيها بطنه ممتلئة زاد التأثير السلبي، وكلما زاد قدر الملء لبطنه زاد الأثر السلبي أيضاً.

٢- عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: **(إن الله علم لا جهل فيه، حياة لا موت فيه، نور لا ظلمة فيه)** وعن يونس بن عبد الرحمن، قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: روينا أن الله علم لا جهل فيه، حياة لا موت فيه، نور لا ظلمة فيه، قال عليه السلام: **(كذلك هو)** التوحيد - الشيخ الصدوق: ص١٣٧.

وبهذا يظهر ويتبين أنه لا يوجد مخلوق يحقق في معادلة التذكر مائة بالمائة ليمكن أن يوصف تذكره بأنه تام وكامل، وبالتالي يكون نسيانه وغفلته مساوية للصفر أي إنه لا ينسى ولا يغفل والله سبحانه لا يمكن أن يخلق مخلوقاً تذكره مائة بالمائة ونسيانه وغفلته صفر، ليس لأن الله غير قادر ولا يتعلق الأمر بالقدرة، بل لأن هذا أمر محال ومعناه تعدد اللاهوت المطلق تعالى الله علواً كبيراً) [١].

* * *

توضيح حول معنى الشيطان:

ورد في حديث السيد أحمد الحسن تفسير لكلمة (الشيطان) الواردة في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً﴾[٢]، بأن المقصود منها: (الظلمة التي لا يخلو منها مخلوق)، وقد بيّن سلام الله عليه هذه الظلمة في كتاب المتشابهات بقوله: (... فالفطرة الإنسانية فيها النكتة السوداء التي هي شائبة العدم والظلمة)[٣]، وقوله: (الحجب الظلمانية: هي جنود الجهل التي ذكرها الإمام الصادق عليه السلام [٤]، والأخلاق الذميمة و (الأنا) المغروسة في فطرة الإنسان، فكلما زادت (الأنا) عند الإنسان زادت هذه الحجب، وكلما قلّت (الأنا) عند الإنسان قلت هذه الحجب، فهذه الحجب منشؤها الظلمة والعدم والمادة، وهي ليست إلا سلب لكل خير)[٥].

ومن كلماته عليه السلام هذه يُفهم أن الظلمة أو النكتة السوداء هي الأنا المغروسة في فطرة الإنسان، وهذه الأنا حجاب، وهي لابد منها، فإذا ما أُميطت عن وجود الإنسان يفنى ولا يبقى إلا الله الواحد القهار، وهي أس المصائب كلها، وهي التي أردت إبليس (لعنه الله): ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[٦].

١- المصدر نفسه: ص٣٠ وما بعدها.
٢- الكهف: ٦٣.
٣- المتشابهات الأجزاء الأربعة: ص٦٩ – ٧٠.
٤- في الحديث الذي رواه سماعة عنه، وقد ذكر فيه عليه السلام جنود العقل والجهل، الكافي: ج١ ص٢٠ – ٢٣ ح١٤.
٥- المتشابهات الأجزاء الأربعة: ص٧٠.
٦- الأعراف: ١٢.

ولعل أصحاب القلوب الحية يدركون بجلاء باهر أن تفسير السيد أحمد الحسن عليه السلام لكلمة (شيطان) المشار إليها تحل مشكلة من أعقد المشاكل التي واجهت المفسرين [١] والباحثين في مسألة العصمة.

فالنصوص القرآنية واضحة في أن الشيطان كان سبباً في نسيان فتى موسى (يوشع) (عليهما السلام)، بينما آيات أخرى من قبيل قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[٤]، تنفي أن يكون للشيطان سلطان على الأنبياء والمخلَصين عليهم السلام، الأمر الذي يظهر منه للجاهل أن ثمة تناقضاً والعياذ بالله، ومن هنا وجدنا كلماتهم حائرة في حل هذه المعضلة.

قال السيد الطباطبائي: (ولا ضير في نسبة الفتى نسيانه إلى تصرف من الشيطان بناء على أنه كان يوشع بن نون النبي والأنبياء في عصمة إلهية من الشيطان؛ لأنهم معصومون مما يرجع إلى المعصية، وأما مطلق إيذاء الشيطان فيما لا يرجع إلى معصية فلا دليل يمنعه، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾[٥]) [٦].

السيد الطباطبائي لا يأنف من نسبة نسيان يوشع والأنبياء للشيطان، وكأنه بهذا يقول بأن المعصومين يجري عليهم النسيان، ولكنه للأسف الشديد لا يصرح بهذا، ولم يؤكده، وإن كان يُفهم من كلامه بطبيعة الحال. والأمر المهم الذي نحن بصدده هو أن السيد الطباطبائي يحدد قدرة الشيطان في إيذاء الأنبياء إلى مطلق الإيذاء ويستثني إدخالهم في المعصية.

أقول: لعل حيرة السيد الطباطبائي اضطرته إلى ركوب هذا المركب العاثر، فهو هنا يجعل لإبليس (لعنه الله) سلطاناً على الأنبياء، بينما القرآن الكريم ينفي نفياً قاطعاً ومطلقاً أن يكون

١- أقول (مفسرين) بحسب الشائع بين الناس، وإلا فالتفسير ينبغي أن يؤخذ من آل محمد عليهم السلام، فهم عدل القرآن، وهم القرآن الناطق.
٢- الحجر: ٤٢.
٣- النحل: ١٠٠.
٤- الحجر: ٣٩ – ٤٠.
٥- ص: ٤١.
٦- تفسير الميزان - السيد الطباطبائي: ج١٣ ص٣٤١.

لهذا الخبيث سلطان على الأنبياء ومن أي نوع كان، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[٣]، والأنبياء ليسوا منهم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾[٥].

أما الشيخ ناصر مكارم الشيرازي فقد قال: (وهنا قد يطرح هذا السؤال: هل يمكن لنبي مثل موسى عليه السلام أن يصاب بالنسيان حيث يقول القرآن فنسيا حوتهما، ثم لماذا نسب صاحب موسى عليه السلام نسيانه إلى الشيطان ؟ في الجواب نقول: إنه لا يوجد ثمة مانع من الإصابة بالنسيان في المسائل والموارد التي لا ترتبط بالأحكام الإلهية والأمور التبليغية، أي في مسائل الحياة العادية (خاصة في المواقع التي لها طابع اختبار، كما هو الحال في موسى هنا، وسوف نشرح ذلك فيما بعد). أما ربط نسيان صاحبه بالشيطان، فيمكن أن يكون ذلك بسبب أن قضية السمكة ترتبط بالعثور على ذلك الرجل العالم، وبما أن الشيطان يقوم بالغواية، لذا فإنه أراد من خلال هذا العمل (النسيان) أن يصلا متأخرين إلى ذلك العالم، وقد تكون مقدمات النسيان قد بدأت من (يوشع) نفسه، حيث أنه لم يدقق ويهتم بالأمر كثيراً) [٦].

أقول: ها هو ناصر مكارم الشيرازي يلتحق بركب من يجوزون النسيان على الأنبياء، وإن في موارد دون أخرى، إذن فما معنى قول البعض: (إن الطائفة أطبقت على القول بأنهم لا ينسون ولا يسهون) ؟ والشيخ ناصر يتعقب هنا أثر السيد الطباطبائي ويتبنى مقولته آنفة

١- الحجر: ٤٢.
٢- النحل: ٩٩.
٣- النحل: ١٠٠.
٤- الاسراء: ٦٥.
٥- النساء: ٧٦.
٦- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل - الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: ج٩ ص٣١٥ – ٣١٦.

الذكر فيرد عليه ما ورد على السيد الطباطبائي. ويزيد عليه أن قوله: (وبما أن الشيطان يقوم بالغواية، لذا فإنه أراد من خلال هذا العمل (النسيان) أن يصلا متأخرين إلى ذلك العالم)، هذا القول إذا كان يريد منه أن النسيان وأنا بطبيعة الحال لا أنسبه لإبليس لعنه الله تسبب في وصولهم متأخرين للعالم فهو غير صحيح تماماً، بل العكس هو الصحيح، فالنسيان كان كما قال السيد أحمد الحسن سبباً في بلوغهما الهدف، قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً﴾[١].

أما كيف يكون المراد من الشيطان في هذه الآية هو الأنا، فلابد أن نعرف أولاً أن الأصل من كلمة شيطان إما أن يكون (شطن) وهو البعد، وإما أن يكون (شاط) أي احترق غضباً، قال الراغب في المفردات:

(شطن: الشيطان النون فيه أصلية وهو من شطن أي تباعد ومنه بئر شطون وشطنت الدار وغربة شطون، وقيل بل النون فيه زائدة من شاط يشيط احترق غضباً، فالشيطان مخلوق من النار كما دل عليه: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ ولكونه من ذلك اختص بفرط القوة الغضبية والحمية الذميمة وامتنع من السجود لآدم. قال أبو عبيدة: الشيطان اسم لكل عارم من الجن والإنس والحيوانات، قال: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾، وقال: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ أي أصحابهم من الجن والإنس، وقوله: ﴿كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ قيل هي حية خفيفة الجسم، وقيل أراد به عارم الجن فتشبه به لقبح تصورها، وقوله: ﴿مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ﴾ فهم مردة الجن ويصح أن يكونوا هم مردة الإنس أيضا، وقال الشاعر: * لو أن شيطان الذئاب العسل * جمع العاسل وهو الذي يضطرب في عدوه واختص به عسلان الذئب. وقال آخر: * ما ليلة الفقير إلا شيطان * وسُمي كل خلق ذميم للإنسان شيطاناً، فقال عليه السلام: "الحسد شيطان والغضب شيطان")[٢].

١- الكهف: ٦٣ – ٦٤.

٢- مفردات غريب القرآن - الراغب الأصفهاني: ص٢٦١، وانظر: الصحاح – الجوهري: ج٥ ص٢١٤٤، ولسان العرب - ابن منظور: ج١٣ ص٢٣٧ – ٢٣٩، وتاج العروس – الزبيدي: ج١٨ ص٣٢١ – ٣٢٣.

كلمة (شيطان) تعني إذن البعيد عن الحق والمتمرد، ومن هنا يصح أن تُطلق على الأنا باعتبارها تقابل (هو)، فكلما نظر الإنسان إلى أناه وشعر بوجوده ابتعد عن الله عزوجل، بل لعل الأنا أولى بتسمية (شيطان) من إبليس (لعنه الله)، فهي بيت الداء، وأصل البلاء، لهذا كان علي عليه السلام يتضرع إلى الله باكياً: (إلهي قد جرت على نفسي في النظر لها فلها الويل إن لم تغفر لها) [1].

* * *

تقسيماتهم للعصمة:

هناك من يطرح أسئلة من قبيل: هل يوجد معصومون غير منصوص عليهم، وهل يوجد في زمن واحد أكثر من معصوم ؟ وفي زمننا هذا بدأنا نسمع تقسيمات للعصمة لم يرد لها ذكر في النصوص من قبيل تقسيمها إلى عصمة صغرى وكبرى، وأصلية وثانوية، أو نسبية، وواجبة وغير واجبة، وذاتية واكتسابية. ويبدو أن إطلاق مثل هذه التقسيمات يؤذن بأن الباب باتت مشرعة على مصراعيها للتقولات والتخرصات.

بالنسبة لوجود أو عدم وجود أكثر من معصوم في زمن واحد أقول: إن العصمة على العموم متاحة للجميع، فكل من طلبها وأعد لها عدتها ينالها بفضل الله ومنّه، ولكن الخوض في هذا الأمر فضول لا تُرتجى منه فائدة.

فالله تعالى لم يتعبدنا بمعرفة أحد والطاعة له غير خلفاء الله وحججه على خلقه، هذا فضلاً عن كون هذا المعصوم المعاصر لخليفة الله هو بدوره مكلف بإتباع خليفة الله والطاعة له، والالتزام بأوامره ونواهيه، بل إنه يكون معصوماً بخليفة الله، فهو أفضل منه وأعلم، وبهذا استحق مقام خلافة الله تعالى دونه.

بطبيعة الحال أئمة أهل البيت عليهم السلام كان بعضهم متعاصرين، وكلهم خلفاء الله تعالى بحسب الحقيقة، ولكن من جهة الفعلية يكون أحدهم خليفة الله والآخرون محجوجون به، وبحسب الوارد في الروايات إن المحجوج ربما كانت حقيقته أفضل من الحجة، فأفضليتهم لا

١- من المناجاة الشعبانية لأمير المؤمنين عليه السلام بحار الأنوار: ج٩١ ص٩٧.

تستتبع ترتيب خلافتهم زمنياً، وعليه فإن ما قلناه أعلاه بخصوص الأفضلية يراد منه غيرهم، من قبيل سلمان والمقداد، اللذين تفهم من بعض الأخبار عصمتهم.

أما تقسيم العصمة إلى ما ذكروا فلا دليل عليه، وكل ما يمكن أن يفترضوه أساساً لتقسيماتهم لن يعدو عن كونه تخرصاتٍ وظنوناً ما أنزل الله بها من سلطان، بل إن هذا التقسيم غريب لم يصدر حتى عن من يُعتد بهم من العلماء. فالعصمة، وإن كانت تختلف بالدرجة، إلا أنها حقيقة واحدة مضمونها اعتصام العبد بالله تعالى، وتوفيق الله وتسديده له. واعتصام العبد بربه لا يتجزأ لكي يُقال بالعصمة النسبية، فيكون معصوماً هنا وغير معصوم هناك، أو معصوم بهذا الأمر دون ذلك. نعم، طالما كانت العصمة درجات متفاوتة، فالمعصوم بدرجة لا يكون معصوماً في درجة أرفع منها، كما حصل مع موسى عليه السلام حين التقى العبد الصالح، وقد مرّ حديث السيد أحمد الحسن عليه السلام عنه، ولكن لا يُقال هنا أن عصمة موسى نسبية، هكذا على الإطلاق، وإن كان قد يصح أن يُقال هي نسبية قياساً بعصمة العبد الصالح.

أما ما يُقال من أن العصمة الكبرى تشمل السهو والنسيان، دون العصمة الصغرى [1]، فهو تقوّل بخلاف الدليل، والنصوص التي أثبتت وقوع النسيان والسهو للمعصومين، كما إن مثل هذا التقسيم قد ينم عن شعور لدى المعاصرين بأن ما ذهب له الأقدمون من المتكلمين من أن المعصوم لا يسهو ولا ينسى هو مذهب محرج للغاية لتناقضه مع كثير من النصوص

١- وجدت هذا القول منسوباً للشيخ ياسر الحبيب في شبكة الإنترنيت على الرابط أدناه، وإليكم ما وجدته:

السؤال:

السلام عليكم .. وأرجو أن تتقبلوني بسعة رحب.

لعن الله من عاداكم ونصب العداوة لكم ووفقكم وأعلى مقامكم وزاد علمكم ووسع مداركم.

سؤال بسيط فقط أرجو توضيحه... ما الفرق بين العصمة الصغرى والعصمة الكبرى ؟

الدرازي

الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين ولعنة الله على أعدائهم أجمعين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... عظم الله أجورنا وأجوركم.

بمراجعة الشيخ أفاد أن من الفوارق أن العصمة الكبرى تشمل السهو والنسيان وترك الأولى وما يكون خلاف المروءة، فيما لا تشمل العصمة الصغرى ذلك.

كما أن العصمة الكبرى ذاتية لكن العصمة الصغرى مكتسبة، لكن ليس في كل الشخصيات كما يقول الشيخ.

مكتب الشيخ الحبيب في لندن

ليلة ١ ربيع الأول ١٤٢٩

http://alqatrah.net/question/index.php?id=٥٨٧

القرآنية والحديثية، وهنا لجئوا لهذه الطريقة الملتوية للالتفاف على موقفهم المحرج، وإن كنت أظن أنهم ربما يريدون منها منح بعض المراجع مقامات ليست لهم [١].

أما عن كون العصمة واجبة أو غير واجبة فلا أدري حقاً ماذا يعنون على وجه التحديد، فمصطلح (واجب) يستخدمونه عادة في وصف الأحكام أو التشريعات في التقسيم الخماسي المشهور (واجب حرام مندوب مكروه مباح)، ولا أظنهم يقولون بأن العصمة من سنخ الأحكام التي تقع تحت هذا التقسيم. والأرجح أنهم يقصدون من الواجب هنا ما يقصدونه في الاستعمال الفلسفي الذي يقسم الوجود إلى واجب وممكن، فإذا كان هذا، يكون مرادهم من وجوبية العصمة وعدم وجوبيتها، هو أن الضرورة تقتضي وجود معصوم وهذا هو المعصوم الواجبة عصمته، ولكن وجوده لا يعني عدم وجود معصوم غيره وهذا هو المعصوم غير الواجب وجوده، ولكن هذا التقسيم لا يخلو من رائحة جبر، بل لعل القائل به أدرك ذلك أم لم يدركه يفترض أن العصمة موهبة من الله تعالى للعبد، وليست مقاماً، أو درجة يمكن للعبد أن يصل لها من خلال سعيه. إذ لو كان القائل يرى العصمة درجة يبلغها العبد بسعيه، لما كان هنالك وجه للقول بالوجوبية وعدمها، فالعصمة بوصفها درجة يسعى العبد لبلوغها ممكنة بالنسبة للجميع على حد سواء.

١- وجدت في بعض المنتديات ما يلي أورده نصاً وبأخطائه:
العصمة الصغرى درجة هل يستطيع المرجع الوصول أليها ؟؟؟
فعلاً أن المراجع العضام ليسوا بمعصومين كون الثابت لدينا نحن الشيعة بأن المعصومين هم الرسول محمد صلى الله عليه وآله وأبنته الزهراء (عليها السلام) والائمة الاثنا عشر ألذي ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وآله في الأحاديث المستفيضة... ولكن الشارع المقدس شرط عدة شروط يجب توفرها في المرجع ومنها وأهمها (العدالة) وهي (الاستقامة في جادة الشريعة المقدسة وعدم الانحراف عنها يميناً وشمالاً بأن لا يرتكب معصية بترك واجب أو فعل حرام من دون عذر شرعي، ولا فرق في المعاصي من هذه الجهة بين الصغيرة والكبيرة) انتهى كلام السيد الخوئي (قدس سره الشريف)..
إذن شرط من شروط المرجع عدم فعل المحرمات وعدم ترك الواجبات لذلك يستحق منا نحن المؤمنين تقليده والعمل برسالته وخلاف ذلك لا يجوز تقليد المجتهد الغير عادل، نعم أيها الإخوة الأعزاء رجاءاً الانتباه لهذه الفقرة (الاجتهاد درجة علمية يمكن للكثيرين عن طريق الدراسة الوصول لها ولكن المرجعية تتطلب العدالة مع الاجتهاد وهنا الفيصل فكم من مجتهد غير عادل) !!! لذلك على الأخوة والأخوات اعتماد العدالة مع الاجتهاد في التقليد من هنا يتبين لنا مدى قدسية المرجع وليس المجتهد، لماذا؛ لأن المرجع وصل إلى درجة عدم عمل المحرمات وعدم ترك الواجبات ... الأمام العباس عليه السلام لم يكن معصوماً بالعصمة الإلهية الكبرى ولكنه معصوماً بالعصمة الصغرى وهي عدم فعله للمحرمات والمكروهات وعدم تركه للواجبات والمستحبات ... لذلك يكون للمرجع درجة هي الأعلى بين الناس في زمانه) .. روى السيد هادي الشيرازي (قدس) أنه عاشر الميرزا مهدي الشيرازي أكثر من أربعين سنة فلم يراه يفعل مكروهاً (أنظر عزيزي لم يفعل المرجع في ذلك الزمان مهدي الشيرازي (قدس) أي مكروه (وهذه درجة لا ينالها إلا من أختصه الله بعنايته لذلك يكون المرجع الحق هو المسدد من قبل الله سبحانه وتعالى ... أنظر أخي أختي لمن تقلد فانك غداً لمسؤول عن حجتك وأختيارك... نسأل الله أن يتغمد برحمته الواسعة مراجعنا الماضين وأن يحفظ لنا الباقين سنداً وقوة ومناراً أنه السميع العليم.
هذا الكلام تجدونه على الرابط أدناه: http://www.afadak.com/forum/showthread.php?t=243

ومثل هذا الكلام يُقال بالنسبة لمن قسّمها إلى ذاتية واكتسابية، ولنتذكر الآن ما كتبه الشيخ جعفر السبحاني: (إنّ العصمة سواء أفسّرت بكونها هي الدرجة العليا من التقوى، أو بكونها العلم القطعي بعواقب المآثم والمعاصي، أم فسّرت بالاستشعار بعظمة الرب وجماله وجلاله، وعلى أي تقدير فهو كمال نفساني له أثره الخاص، وعندئذ يسأل عن أنّ هذا الكمال هل هو موهوب من الله لعباده المخلصين، أو أمر حاصل للشخص بالاكتساب ؟ فالظاهر من كلمات المتكلمين أنّها موهبة من مواهب الله سبحانه يتفضّل بها على من يشاء من عباده بعد وجود أرضيات صالحة وقابليات مصحّحة لإفاضتها عليهم) [1].

واضح إن الشيخ السبحاني ينفي في هذا النص كون العصمة أمراً مكتسباً، فيلزمه أدرك أم لم يدرك أن يقول بالجبر والإلجاء، فإذا لم تكن العصمة درجةً تُكتسب بالعمل، فلن تكون إلا هبة تُعطى بلا استحقاق ! ولن ينفع السبحاني قوله (بعد وجود أرضيات صالحة وقابليات مصحّحة لإفاضتها عليهم)، فهذه الأرضيات والقابليات المصححة إما أن يكون العبد اكتسبها بعمله، وعندها لا يبقى وجه لنفي الاكتساب، وإما أن تكون هي بدورها موهوبة له فيكون الجبر مطبقاً من كل وجه.

بطبيعة الحال الشيخ السبحاني في كتابه (عصمة الأنبياء) كتب في مواضع كثيرة أن العصمة لا تكون بالإلجاء والجبر، ولكن ما قيمة مثل هذه الكلمات إذا كان المستقر في الذهن نقيضها ؟

* * *

الدليل على العصمة :

عرّفنا العصمة بأنها الاعتصام بالله عن محارم الله، والمعصوم هو المعتصم بالله عن محارم الله، الأمر الذي يعني أن العصمة أو الاعتصام بالله سبحانه ليس شيئاً آخر سوى الإيمان به ﷻ وإخلاص الطاعة له.

١- عصمة الأنبياء - جعفر السبحاني: ص٢٩.

السؤال الآن هو: هل اعتصام العبد بالله يقابله الله ﷻ بتسديد منه وعصمة للعبد، أم لا ؟ أليست العصمة فعل اعتصام أو إخلاص من طرف العبد، فهل يقابله من الطرف الآخر توفيق أو عصمة من الله سبحانه وتعالى ؟

وعلى الرغم من كون جواب السؤال أعلاه بديهياً بالنسبة لكل مؤمن بالله سبحانه وتعالى، غير أننا نريد استعراض بعض الآيات القرآنية لتكون موجهاً لمسيرة عقولنا وقلوبنا معاً:

قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾[٥].

١- آل عمران: ١٠١.
٢- النساء: ١٤٦.
٣- النساء: ١٧٥.
٤- الحج: ٧٨.
٥- النساء: ١٧٥.

والآن لو أعدنا السؤال على ضوء هذه الآيات قائلين: إن هذه الآيات توجهنا للاعتصام بالله تعالى، فإذا ما اعتصم العبد بربه، هل يعصمه الله وتتحقق العصمة أم لا ؟ لا يشك مؤمن بالله بأنه سبحانه، وقد أرشدنا للاعتصام به، سيعصم من اعتصم به.

إذن أين المشكلة مع العصمة ؟ لماذا يقول البعض: أنه لا يوجد شيء اسمه العصمة، أو المعصوم ؟ لماذا يقولون: لا يوجد مخلص لله سبحانه وتعالى، ولا يوجد من لا يريد إلا ما يريده الله ؟

إن نفي العصمة لا يعني سوى نفي الإخلاص والمخلصين لله ﷻ، وإذا كانت العصمة درجة عليا من الإخلاص، فما المانع من تحققها في نخبة من خلق الله، بل لا أدري ما عسى تكون حجة من ينفي، بينما القرآن صريح بأن بعض عباد الله مُخلَصون ؟

الاعتصام بالله منشؤه الإيمان به تعالى، والاعتقاد بأنه ﷻ مالك الملك، وأن بيده أزِمّة الأمور كلها، وهو على كل شيء قدير، إيماناً واعتقاداً راسخاً، لا شك فيه، ولا شبهة تعتريه، فهل القول بوجود شخص يعتقد هذا الاعتقاد أمر مستحيل، أم إنه أمر طبيعي ؟

وبكلمة أخرى: الاعتصام بالله ﷻ ليس شيئاً آخر غير إطاعته في أوامره ونواهيه، والتزام ما يقرب منه سبحانه وتعالى، وتجنب ما يُبعّد عنه ويتسبب بسخطه، والاعتقاد بأن لا متحرك يتحرك، ولا ساكن يسكن، إلا بإذنه، فهل هذا مرة أخرى أمر متعذر ؟

الحق يُقال أرى مسألة العصمة أمراً بديهياً، ما كانت لتصبح مثار جدل لولا التشويهات التي ألحقت بها، والإضافات التي حُمّلت عليه، فأظهرتها بصورة معقدة هي أبعد ما تكون عنها.

والحق إن من لا يقول بالعصمة، ويراها أمراً متعذراً عليه هو أن يحضّر أجوبة على أسئلة صعبة لا يمكنه الإجابة، لأنه ببساطة يعتقد بأن الإيمان أمر متعذر!

فهل في دين الله عنت ؟ هل كلفنا الله ما لا طاقة لنا به ؟ أم كلفنا ما هو ميسور لنا ؟

إذا كنتم تؤمنون أن دين الله ﷻ هو المحجة البيضاء التي لا عوج فيها ولا أمت، وأن من يلتزم به يهتدي، ويحظى برضا الله ورعايته، وأنه سهل يسير، فلابد أن تقولوا بوجود المعصوم،

أي المتمسك بدين الله؛ لأنكم إن لم تقولوا بوجوده، تقولون حتماً بأن الالتزام بدين الله أمر فوق طاقة البشر، أو تقولون بأن الله سبحانه وتعالى وحاشا لله يجبر عباده على المعصية ويحول بينهم وبين التمسك بدينه.

أو لعلكم تقولون بأن الله تعالى علواً كبيراً الذي وعد المتقين أن يعصمهم ويهديهم يخلف وعده، وهل مر بكم قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[٢].

وقال تعالى في آية (٢) من سورة الطلاق: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً﴾.

* * *

وإذا كانت العصمة كما نستشف مما تقدم تعني الابتعاد عن الأنا وعدم النظر لها، وتصويب النظر إلى خالق السموات والأرض سبحانه وتعالى، وكل بحسبه، فإن مشكلة الناس مع خليفة الله أو مع المعصوم يمكن اختصارها بقصة الأنا التي تحضر أمامهم في كل حين، ولا يريدون مفارقتها ولو للحظة، يستوي في هذا المغالون في تصور المعصوم، والقائلون بالنقيض.

فالناس ينظرون لحالهم، فيبصرون أناساً منغمسين في العصيان والشهوات، وحين تصطدم أنظارهم بصورة المعصوم المشرقة تضطرب أفكارهم، فهل من الممكن أن يكون إنسان مختلفاً عنهم هكذا ؟ هل من المعقول أن يكون هناك شخص مقدس بإخلاصه وعمله بهذا الشكل المختلف عنا ؟؟

إن صورة المعصوم هذه تُشعر الناس بنقص صورهم، تشعرهم بأنهم مذنبون وعاصون، وأنهم قد فرطوا كثيراً، وهنا تنتفض الأنا وتشرع بالدفاع، فطن لذلك الإنسان أم لم يفطن. وهنا طريقتان للدفاع؛ فإما أن تهرع النفس لتدمير صورة المعصوم المشرقة، فتنسب له كل ما

١- غافر: ٦٠.
٢- البقرة: ١٨٦.

تجده فيها، فالمعصوم يستمع للمغنين، وينظر للراقصات، فهو بشر مثلنا، وإما أن تذهب إلى الطرف الآخر فتنفي عنه صورة البشرية تماماً، وتفترض فيه آلالات وطاقات واستعدادات ليست في البشر العاديين أي ليست فينا نحن البشر فترى المعصوم منعدم الظل ومحيطاً بكل اللغات و .. و .. وكل ذلك؛ لأننا نرى صورة البشر على أنها هي صورتنا نحن، وطالما كنا خطّائين فصورة البشر أنه خطاء. إذن لنسحب صورة المعصوم فيكون مثلنا بشراً خطّاء، أو نذهب بالاتجاه الآخر ونسحب منه هويته البشرية هوية مثلنا .

إذن هذه هي المشكلة: نحن نرى صورة البشر من خلال ذواتنا، من خلال صورنا، وكل ما يخالفها فليس هو بشر، ليس مثلنا.

فلو نظرنا الآن لصورة المعصوم المستقرة في أذهان بسطاء الناس من الشيعة سنجدها صورة لا تنتسب لصورة البشر (مثلنا)، بل هي أقرب لصورة ما يختلف عنا تماماً. وإذا كنت قد ركزت هنا على ذهنية الإنسان البسيط، ورصدت الصورة من خلاله، فلأن هذه الذهنية في الحقيقة هي المرصد المثالي الذي يمكن سبر غور الأفكار من خلاله. فذهنية الإنسان البسيط لا تلتقط الفكرة كما هي مجردة ملتبسة كما يريد لها أصحابها، أي لا تلتقطها مموهة مغطاة ببراقع الألفاظ التي تضلل العقل وتخدع الوعي، بل تراها تحتضن الفكرة بكل إيحاءاتها وظلالها، وبكل ما تثيره في المخيلة، فتتجسد الفكرة كاملة فيها.

نعم المثقفون الذين ينطلقون في أعماقهم من نفس الفكرة التي تجرد المعصوم من هويته البشرية (هوية مثلنا)، هؤلاء لا يملكون الجرأة للتصريح بما يعتقدون، فهم يعيشون صراعاً بين الثقافة التي تمنعهم من الاعتقاد بهذه الفكرة، والأنا المجروحة التي تدفعهم بقوة للاعتقاد بها، فتخرج كلماتهم غامضة متناقضة.

إن ما لم يجرؤا علماء الشيعة على التصريح به، نطقت به شفاه المسيحيين، فهؤلاء تخلصوا من المشكلة بكلمة (ليس هو بشراً مثلنا هذا المقدس، بل إله)، فلو كان بشراً مثلنا لفعل كما نفعل.

أما السنة والوهابيون فاختاروا تمزيق صورة المعصوم المقدسة ليستبدلوها بصورهم هم، فيستوي الجميع ويكون المعصوم بشراً مثلنا.

أليس القرآن يقول عنه إنه بشر، أي إنه مثلنا، قال تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً﴾[١].

ولكن هؤلاء الذين سحرتهم كلمة (بشراً) غضوا أبصارهم تماماً عن كلمة (رسولاً) و لم يتساءلوا، أو قل لم تسمح لهم أنواتهم أن يتساءلوا عن معنى (رسولاً). نعم هو بشر مثلنا، ولكن لماذا هو (رسولاً) وليس أنتم ؟ لأنه ببساطة بشر أخلص لله واعتصم بالله، ولأنه ببساطة يمكن للبشر الذي هو مثلنا أن يخلص لله، أن يتجرد من أناه ويعتصم بالله ليستحق أن يكون (رسولاً)، فكونه بشر هو مثلنا نعم، ولكن هذا لا يستلزم أن يكون مثلنا بمعنى أن تكون صورته الأخلاقية كصورنا، وكأنما هو قدر محتوم أن يكون البشر (مثلنا) زارياً بنفسه، مبتعداً عن ربه. علينا أن نعترف أن البشر مثلنا يمكن أن يكون صفحة مشرقة، وأما إذا ظهر بصورة مشوهة كصورنا فليس هذا أمراً طبيعياً، بل إن هذا منشؤه إننا نحن من فشل في الارتقاء، فالبشر مثلنا لا يعني أن يكون مثلنا على مستوى الأخلاق، هل بإمكاننا أن نتواضع ونقر بهذه الحقيقة، هل بإمكاننا أن نواجه هذه الحقيقة المرة ؟

ملاحظة: أرجو أن لا يذهب الظن بأحد إلى أن كلامي ينطوي على إساءة لشخص ما، فالكلام متوجه للأفكار لا للشخوص.

* * *

يستدلون بآيات بظن أنها تنقض العصمة :

يستدل البعض بآيات قرآنية [٢] تنسب العصيان والخطأ للأنبياء والحجج عليهم السلام، ويزعمون أنها تنقض مقولة العصمة من الأساس ولا تُبقي لها عيناً ولا أثراً.

وفي هذا الصدد لابد أن نلاحظ أمراً مهماً للغاية هو أن ما يهمنا من أمر المعصوم ليس كونه يُخطئ أو لا يُخطئ، فقد سبق أن بينا أن الخطأ ممكن عليه، وقلنا هناك أن إمكانية أن

١- الإسراء: ٩٣.

٢- من قبيل قوله تعالى: **(فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى)** طه: ١٢١، وغيرها الكثير.

يُخطئ هي العلة في حاجته إلى العصمة، فلو كان الخطأ مستحيلاً عليه، وكان هو يعصم نفسه بنفسه لا تبقى حاجة للعصمة، فالعصمة هي اعتصام بآخر هو الله تعالى، أي إنها مطلوبة لمن هو مفتقر في الأصل.

وعليه نسأل: ماذا يريد من يستدل بالآيات المشار إليها ؟

إذا كان يريد إثبات أن من نقول بعصمته قد وقع منه الخطأ، فنحن قلنا سلفاً بأن هذا الأمر ممكن، وغير ممتنع. وإذا أراد أنه بخطئه سيدخل الناس وحتى نفسه في الباطل، ويخرجهم من الحق، فالإشكال لا موضوع له في الحقيقة، طالما كانت العصمة هي التسديد والتوفيق الذي يُقابل به الله إخلاص العبد، والتوفيق متحقق في الاستدراك كما هو متحقق في إبعاد العبد عن الوقوع في الخطأ سواء بسواء. وإذا تحقق التوفيق تحققت العصمة، وثبتت.

المستشكل في الواقع غير ملتفت إلى مسألة الاستدراك، وكونه تتحقق العصمة معه، ويفهم العصمة فهماً مغلوطاً فحواه أنها عدم الخطأ تماماً. وفهمه المغلوط هذا يمثل مصادرةً وتحكماً إذا ما أراد فرضه علينا، باعتبار أننا لا نقول به، وباعتبار أنه لا يرى الاستدراك مما تتحقق به العصمة.

قد يُقال: لماذا لا يعصمهم بحيث لا يصدر منهم خطأ أصلاً ؟

هذا السؤال إذا أريد به الإشكال على ما سبق قوله من كون العصمة متحققة في الاستدراك باعتباره مشمولاً للتوفيق والتسديد، فالإشكال به لا يتم.

فإن بالإمكان الجواب عليه بأمور تنطوي جميعها تحت عنوان يُثبت أن لا تعلق للأمر بالعصمة، مثل أن نقول: إن السبب هو من أجل أن يعلم الناس أن المعصومين ليسوا آلهة وليسوا نوراً لا ظلمة فيه. فمن خلال هذه الجواب وغيره يُفهم أن سبب وقوعهم في الخطأ ليس هو عدم عصمتهم كما يريد المستشكل، بل العصمة ثابتة لهم، ولكنهم يقعون في الخطأ لحكمة معينة. ووقوعهم في الخطأ كما قلنا لا يدوم، ولا يترتب عليه ضلال من يتبعهم، بل يتداركهم الله سبحانه وتعالى ويسددهم فيتداركون.

وبعبارة أخرى: إن من يقول: (لماذا لا يعصمهم الله بحيث لا يصدر منهم خطأ أصلاً)، قد يريد استيضاح وجه الحكمة من إمكانية وقوعهم في الخطأ، والسؤال عن هذا الأمر لا علاقة له بنفس موضوع العصمة من جهة كونها ممكنة أو لا؛ لأن السؤال عن حكمة أمر إنما يتوجه بعد تسليم وجود نفس الأمر. وقد يراد منه الإشكال على نفس الموضوع، وهنا لابد أن يكون بناء المستشكل على أن عدم الخطأ أصلاً هو حقيقة العصمة، وأن الاستدراك ليس منها في شيء. وهذا لا يمكنه أن يلزمنا به طالما كنا لا نقول به، فإن من يقول بمفهوم هو من يحدده وليس للآخر إلزامه بغيره.

* * *

تحديدهم العصمة بالتبليغ:

يحصر السنة عموماً عصمة الأنبياء بالتبليغ، وربما قالوا تبليغ كتب الله حصراً، فالرسول محمد صلى الله عليه وآله كما يقول بعضهم معصوم بخصوص تبليغ القرآن الكريم فقط [1].

وهنا نتساءل عن حقيقة هذه العصمة، وما معنى أن تكون متحققة في جانب دون آخر؟؟

لا شك في أن انحصارها في جانب معين يدل على أن لا مدخلية للإنسان وعمله في تحققها، إذ لا معنى لئن يختار الإنسان العصمة في جانب دون بقية الجوانب الأخرى. وبالنتيجة تكون هذه العصمة مفروضة والمعصوم مجبر عليها.

وإذا كانت حقيقة هذه العصمة المدعاة هي الجبر فلا معنى لتسميتها بالعصمة، بل إن إطلاق اسم العصمة في هذا الموضع ليس سوى تلاعب بالألفاظ، فالاسم اللائق بها هو الجبر.

فالعصمة كما يشهد معناها اللغوي مصدرها الاعتصام، وهو حركة إيجابية من قبل العبد الذي يُخلص ويلتجئ إلى ربه، بينما الجبر أو العصمة التي يزعمونها واقع سلبي يُفرض فيه أمر على العبد دون إرادة منه.

١- على الرغم من إمكانية النقاش هنا بقوة فالكثير منهم يؤمن بقصة الغرانيق، وهي – كما يزعمون – بتأثير الشياطين، فلا تنفع هنا مقولة الاستدراك، ولكن سأترك هذا النقاش.

عصمة أولي الأمر:

ورد في الحديث عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام، قوله: (**الإمام منا لا يكون إلا معصوماً، وليست العصمة في ظاهر الخلقة فيُعرف بها ولذلك لا يكون إلا منصوصاً**) [1].

فالطريق لمعرفة المعصوم هو النص عليه، فطالما كانت العصمة أمراً باطنياً، والباطن لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، ومن أعلمه الله.

قال تعالى: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً**﴾[2].

لكننا في هذا المبحث لا نريد القول أن فلاناً أو فلاناً من الناس معصومون، ونأتي بجردة أسماء، بل الغاية هي التدليل على أن من تعبدنا الله بإتباعهم وإطاعتهم والأخذ منهم لابد أن يكونوا معصومين، فإذا ثبت هذا، يثبت أن علينا البحث عمّن نُصَّ عليه أنه معصوم وأن علينا إتباعه.

والحق أن الحديث عن ما هو الدليل على ضرورة أن يكون خليفة الله أو حجته على خلقه معصوماً، كان ينبغي أن يكون من قبيل الحديث عن البديهيات المتقررة في الأذهان سلفاً، ولكن الخلاف العقائدي والسياسي الذي عصف بالأمة، وما استتبعه من طروحات مغلوطة قدمها المتكلمون، كل ذلك أظهر المسألة مشوبة بالكثير من اللبس والغموض، ونأى بها بعيداً عن حقيقتها البسيطة.

فمن الواضح الجلي لكل عقل سليم أن من يطبق شرع الله لابد أن يكون مسدداً فلا يُدخل الناس في باطل ولا يخرجهم من حق، وإلا فإنه إن أضل الناس فإنهم معذورون، طالما كان هو إمامهم المفترض الطاعة من قبلهم، وحيث إن من يخالف شرع الله لا عذر له، فلابد أن يكون الإمام معصوماً لا يدخل الناس في باطل ولا يُخرجهم من هدى.

١- معاني الأخبار – الشيخ الصدوق: ص١٣٢.
٢- الجن: ٢٦ – ٢٧.

ولنقل هذا الأمر بطريقة أخرى: إن على الناس جميعاً أن يخضعوا لأحكام الله عزوجل، وأحكام الله هذه يعرفونها من إمامهم المفروض الطاعة، فهو الذي يحدد لهم الخطأ والصواب، بمقتضى وظيفته كإمام، فإذا ما أخطأ هذا الإمام دون أن يستدرك يكون قد أدخل الناس في الضلال، وبالتالي كيف يحاسبهم الله على ضلالهم وهو أمرهم بإطاعة إمامهم ؟

لابد إذن أن يكون الإمام معصوماً لا يُدخل الناس في ضلال ولا يُخرجهم من هدى ليصح الثواب والعقاب، ولا يَبطُل الدين وتنمحق الشريعة.

وبتقرير آخر أقول: إن الله جل وعلا هو خالق الخلق، وهو واضع القانون الذي ينظم كافة شؤونهم الدنيوية والأخروية، لا يُنكر هذا إلا كافر به تعالى علواً كبيراً. وحيث إنه عزوجل لا يباشر تطبيق أحكامه، وإنما هو يُنْفذُها من خلال خليفة له في الأرض، فلابد إذن أن يكون هذا الخليفة مرآة صافية لا تعكس غير الحق والصواب، فحتى إن تشوشت لسبب أو لآخر فهي سرعان ما تعود لصفائها بتسديد منه سبحانه وتعالى.

إن عدم افتراض الصفاء والعصمة في الإمام، أو الخليفة يستلزم بالضرورة أن يفترضوا أن الله تعالى يأمر بإطاعة من يخطأ ويضل، ويأمر بالنتيجة بالخطأ والضلال، أو على الأقل يلزم منكر عصمة الإمام أن يفترض أنّ الله تعالى لا يحاسب على الضلال، وهذا لا يقول به مؤمن بالله عزوجل.

و يمكن في هذا الصدد الإفادة من بعض ما قال العلامة الحلي، من قبيل قوله:

(الثاني: أن الإمام حافظ للشرع فيجب أن يكون معصوماً، أما المقدمة الأولى فلأن الحافظ للشرع ليس هو الكتاب لعدم إحاطته بجميع الأحكام التفصيلية ولا السنة لذلك أيضا ولا إجماع الأمة؛ لأن كل واحد منهم على تقدير عدم المعصوم فيهم يجوز عليه الخطأ فالمجموع كذلك، ولأن إجماعهم ليس لدلالة وإلا لاشتهرت ولا لأمارة إذ يمتنع اتفاق الناس في سائر البقاع على الأمارة الواحدة، كما نعلم بالضرورة عدم اتفاقهم على أكل طعام معين في وقت واحد، أو لا لهما [1] فيكون باطلاً، ولا القياس لبطلان القول به على ما ظهر في أصول الفقه وعلى تقدير تسليمه فليس بحافظ للشرع بالإجماع، ولا البراءة الأصلية؛ لأنه لو وجب المصير

١- أي وليس لهما معاً، وهما الدلالة والأمارة.

إليها لما وجب بعثة الأنبياء، وللإجماع على عدم حفظها للشرع فلم يبق إلا الإمام فلو جاز الخطأ عليه لم يبق وثوق بما تعبدنا الله تعالى به وما كلفناه، وذلك مناقض للغرض من التكليف وهو الانقياد إلى مراد الله تعالى) [١].

مشكلة منكري العصمة هي أنهم يذهبون إلى النقض على مسألة طاعة الإمام بعد رسول الله ﷺ طاعة مطلقة ليقطعوا الطريق على البرهان، وهنا لابد من مناقشة هذه المحاولة الملتوية، وغلق الباب عليهم من هذه الجهة.

وفي هذا الصدد نستدل بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [٢].

الآية كما هو واضح تدل على وجوب إطاعة الله تعالى، ثمّ إطاعة النبي وإطاعة أولي الأمر، أما حدود الإطاعة فهي مطلقة غير مقيدة ولا مشروطة، يستوي بهذا إطاعة الله، وإطاعة الرسول، وإطاعة أولي الأمر، بحسب ما يقتضيه العطف.

ولكن للقوم إشكالات، منها:

أولاً: قولهم أن الآية أمرت بالرد إلى الله والرسول، و لم تأمر بالرد إلى أولي الأمر، يريدون بهذا القول النقض على وجوب إطاعة أولي الأمر إطاعة مطلقة.

وفي الجواب أقول: إن هذا الذي زعموه لا يصلح قيداً؛ لأننا نقول إن هذا التنازع الذي ذكرته الآية، هل هو تنازع بين المؤمنين أنفسهم، فيكونون هم طرفاه، أم هو بينهم من جهة فيكونون طرفاً، وبين أولي الأمر من جهة أخرى فيكونون الطرف الآخر ؟

إذا قيل بالأول، أي إن طرفي التراع هم المؤمنون دون ولي الأمر، فمن يفض التراع إذن هم أولي الأمر، وفض التراع والفصل فيه يقع ضمن دائرة وظيفتهم وصلاحيتهم، وعدم ذكر الرد إليهم في هذه الآية وسنرى أن آية أخرى أمرت بهذا لا يعني تجريدهم من هذه

١- كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد (تحقيق الآملي) - العلامة الحلي: ص٤٩٣.
٢- النساء: ٥٩.

الوظيفة أو الصلاحية، بل ربما كان يعني كما قال بعضهم [١] أن أولي الأمر ليس لهم أن يشرعوا، وإنما عليهم التزام ما ورد في الكتاب والسنة، وعدم تشريعهم شيء وطاعتهم وكونها مطلقة أو مقيدة شيء آخر. وبالنتيجة إذن لا يعني عدم ذكر الرد إليهم أن طاعتهم مقيدة، بل الأولى أن تكون مطلقةً ليتحقق المطلوب، وهو فض نزاع المؤمنين، فإذا لم تكن طاعتهم واجبة ومطلقة كيف يرضخ المتنازعون للحكم الذي يصدر عنهم، ويقبلون به على أنه حكم الله في الواقعة المعينة مورد التنازع ؟ ولعله واضح أن افتراض الإطاعة المطلقة لهم من لوازم كمال الدين، ذلك أن أولي الأمر في هذه الحالة سيتعينون بوصفهم صمام الأمان الذي يحفظ الأمة من الفتن والمنازعات التي ربما أتت على كيانها، فهل يتعقل مؤمن بالله أنه تعالى يترك الأمة دون أن يحدد لها العلاج الناجع لهذا الداء الخطير ؟

وعلى أي حال، فالظاهر من الآية هو أن التراع بين المؤمنين باعتبار توجه الخطاب إليهم، فقد صُدّرت الآية بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾، وإن قيل بالثاني، وهو أن ولي الأمر طرف في التراع، والتنازع معه، فهنا كلام:

أ هل يجري ما تقولون على الرسول، بل وعلى الله أيضاً، باعتبار الإطاعة واحدة كما هو مقتضى العطف ؟ وإذا استثنيتم الله بدعوى إفراده بأمر ﴿أَطِيعُواْ اللّهَ﴾، وهذا الإفراد كما قد تقولون دليل على أن إطاعته سبحانه مختلفة، فجوابه إن الإفراد المذكور قد يكون ناظراً إلى أن طاعته سبحانه وتعالى هي الأصل، وطاعة الرسول وأولي الأمر بالتبع، ولا علاقة لهذا بإطلاق الطاعة أو عدمه.

وحتى لو سلمنا لكم فيه، فبأي ظن تخرجون الرسول، وهو يشترك مع أولي الأمر بأمر واحد ﴿أَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ﴾؟؟ فمن الواضح لكل مؤمن أن إطاعته ﷺ مطلقة، وأولي الأمر بالنتيجة لهم ذات الإطاعة المطلقة بمقتضى العطف.

١- انظر: تفسير الميزان - السيد الطباطبائي: ج٤ ص٣٨٩.

وهنا قد يستدلون ببعض الآيات على أن طاعة الله وطاعة الرسول مختلفة عن طاعة أولي الأمر، بدليل ورودها في كثير من الآيات، بمعزل عن ذكر أولي الأمر، من قبيل قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٥].

وجوابه: إن ما تقولون محض تخرص، وإلا ما الدليل على أن عدم ذكر أولي الأمر في هذه الآيات وأمثالها يُفهم منه تقييد إطاعتهم، أليس من الجائز أن يكون السبب غير ما ذكرتم ؟ فهل يمكنكم أن تقولوا على نحو الجزم أن السبب هو ما ذكرتم حصراً، وبأي دليل تقطعون ؟

بل ما عساكم تقولون لمن يعترضكم بالقول أن الرسول ﷺ ذُكر في هذه الآيات وأُريد كل العناوين المرتبطة به، ومنها وربما على رأسها كونه ولياً لأمر الأمة، أي المصداق الفعلي لأولي الأمر، وإلا فإن إطاعة رسول الله ﷺ مفروغ منها لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا

١- التغابن: ١٢.
٢- المجادلة: ١٣.
٣- محمد: ٣٣.
٤- النور: ٥٤.
٥- الأنفال: ٤٦.

مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾[١].

إذن ما معنى هذا التأكيد المضاعف على إطاعته ؟ أليس يراد منه ترسيخ فكرة أن للرسول حق الولاية على المؤمنين، أو على الأقل هل يمكنكم أن تنكروا هذا المراد بدليل قطعي ؟

وإذا ثبت أن إطاعة الرسول صلى الله عليه وآله يُراد منها من جملة ما يُراد عنوان كونه ولي الأمر، تثبت مدخلية نفس العنوان في تقرير الإطاعة، وثبوتها للعنوان يستلزم ثبوتها لكل المصاديق التي تندرج تحته، دون فرق بين كون المصداق مرسلاً من الله ويوحى له أم خليفة أو حاكماً. ولعل في قصة طالوت مثلاً جلياً لمن ألقى السمع وهو شهيد، قال تعالى: **﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾**[٢].

فطالوت كما هو واضح لم يكن نبياً، بل إن النبي بينهم ومنه طلبوا أن يُعيّن الله لهم ملكاً، ومع ذلك كان له حق الطاعة عليهم، وكان له أن ينهاهم ويأمرهم، كما يُستدل من قوله تعالى: **﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾**[٣].

ب أجاب السيد أحمد الحسن عليه السلام عن هذا الإشكال في كتاب الجواب المنير[٤]، وإليكم السؤال الذي وُجه له وجوابه عليه:

(**السؤال/ ٧٥**: بسم الله الرحمن الرحيم، السيد أحمد الحسن عليه السلام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

١- النساء: ٦٤.
٢- البقرة: ٢٤٧.
٣- البقرة: ٢٤٩.
٤- الجواب المنير الأجزاء الثلاثة: ص١٣٤ وما بعدها.

لي صديقة سنيّة وقد طرحت عليَّ بعض الإشكالات التي حيّرتني، وهي في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾، لماذا لم يأمر بالردّ إلى أولي الأمر إن كانوا هنا معصومين ؟

المرسل: شيماء حسن علي

الجواب: بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآل محمد الأئمة والمهديين وسلم تسليماً.

١ بعد هذه الآية بآيات في نفس السورة قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً﴾[١]، وفي هذه الآية أمر الله بالرد إلى أُولي الأمر عليهم السلام وفي هذا كفاية لمن ألقى السمع وهو شهيد.

٢ الرد إلى الرسول صلى الله عليه وآله من بعده يعني الردّ إليهم عليهم السلام؛ لأنّهم الامتداد لدعوته الإلهية وإلاّ لماتت هذه الآية: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[٢] بموت رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يكن هناك حاكم يحكم بأمر الله يرد إليه عند التنازع، فينتفي عندها الردّ إلى الرسول والى الله سبحانه.

٣ حاشاه سبحانه وتعالى من أن يُضيع عباده، فلماذا يضع لهم من يرجعون إليه عند تنازعهم في زمن ثم يهملهم في آخر، وهل هذا هو العدل الإلهي في نظرهم ؟!! وإن قالوا نرجع إلى القرآن وسنّة الرسول صلى الله عليه وآله من بعده، فقد لجّوا في العناد والمكابرة، أَوَلم يكن قبل نزول هذه الآية قرآن مترل وسنّة للرسول صلى الله عليه وآله، فلماذا لم يأمر سبحانه بالاكتفاء بها، بل إنّ لكل حادث حديثاً، ولكل مستجد حكماً من الله يعلمه رسول الله وأُولو الأمر آل محمد عليهم السلام الأئمة والمهديون الذين أمر الله بطاعتهم ؟ وإن قالوا إنّ بعد محمد صلى الله عليه وآله تم الدين بالقرآن والسنّة النبوية التي عندهم ولا تنازع بعده صلى الله عليه وآله .

١- النساء: ٨٣.
٢- النساء: من الآية ٥٩.

فأنا لا أنقلهم إلى تنازعهم في الأحكام منذ مئات السنين، فهذا يحلل وذاك يحرّم نفس الشيء، بل كفّر أئمتهم بعضهم بعضاً في مسألة خلق القرآن المعروفة. لكن أريد طرح مصيبة اليوم التي هم فيها مختلفون، وهي مصيبة تحليل إرضاع الكبير الذي افترت عائشة على رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه جوزه، وحاشاه صلوات الله عليه وعلى آله من هذا الفساد الذي افترته عائشة بنت أبي بكر و لم تعمل به معها إلاّ حفصة بنت عمر، و لم يرتدعا عندما ضرب الله لهما مثلاً امرأتي نوح عليه السلام ولوط عليه السلام، و لم يزدهما هذا المثل إلاّ طغياناً ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ**﴾[1]. والطامة الكبرى أنّهم يعتبرون هذا الحديث صحيحاً ورواه البخاري ومسلم.

وإليك نص هذه المصيبة، فقد أفتى رئيس قسم الحديث في جامعة الأزهر بجواز إرضاع الكبير:

(حيث أفتى د. عزّت عطية رئيس قسم الحديث بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر، أنّه يجوز للمرأة العاملة أن تقوم بإرضاع زميلها في العمل منعاً للخلوة المحرّمة، إذا كان وجودهما في غرفة مغلقة لا يفتح بابها إلاّ بواسطة أحدهما).

(وأكد عطية لـ . «العربية. نت» أن إرضاع الكبير يكون خمس رضعات وهو يبيح الخلوة ولا يحرّم الزواج، وإن المرأة في العمل يمكنها أن تخلع الحجاب أو تكشف شعرها أمام من أرضعته، مطالباً توثيق هذا الإرضاع كتابة ورسميًا ويكتب في العقد أنّ فلانة أرضعت فلاناً.

وفي تصريحات لـ . «العربية. نت» قال عضو مجلس الشعب خلف الله: إن الخطأ في هذا الموضوع أنّه لم يتم تناوله بطريقة علمية أو أكاديمية، فلو حدث ذلك لاختلفت المسألة، لكنّها أثيرت إعلامياً بطريقة ساخرة كأنّ هناك من يحبون أن تشيع الفاحشة.

إلاّ إنّ الشيخ السيد عسكر الوكيل الأسبق لمجمع البحوث الإسلامية، وهي أعلى هيئة فقهية بالأزهر، والنائب عن جماعة الإخوان المسلمين بالبرلمان، رفض هذا الرأي مؤكداً إنّه

١- التحريم: ١٠.

خروج على إجماع علماء الأمة ولا يجوز القياس على حالة خاصة، ومطالباً بالتصدي لذلك؛ لأنّه يسهم في نشر الرذيلة بين المسلمين.

وكان د. عزّت عطية صرّح لجريدة «الوطني اليوم» الناطقة بإسم الحزب الحاكم الذي يهيمن أعضاؤه على مجلس الشعب، إنّ إرضاع الكبير «يضع حلاً لمشكلة الخلوة؛ لأن حماية الأعراض من المقاصد الأصيلة للشريعة، ويبني عليها كثير من الأحكام. مطالباً بتوثيق الإرضاع كتابة ورسمياً، ويكتب في العقد أنّ فلانة أرضعت فلاناً ونشهد الله على ذلك ونحن من الشاهدين». ثم كرّر ذلك في لقاء مع قناة النيل الثقافية التابعة للدولة.

وأضاف أنّ السيدة حفصة التي بعثت ابن أخيها سالم بن عبد الله بن عمر يرضع من أخت السيدة عائشة حتى يدخل عليها، فرضع ثلاث مرّات وتعبت و لم يتم خمس رضعات فلم تدخله السيدة عائشة وماتت قبل أن يحدث ذلك).

هذا بعض ما ورد في وسائل الإعلام حول هذه الفتوى في شهر (٥/ ٢٠٠٧) ويستطيع أي أحد الاطلاع على الفتوى والجدل حولها في وسائل الإعلام وفي شبكة الإنترنت.

وانظري إلى ما يقول الشيخ السيد عسكر الوكيل الأسبق لمجمع البحوث الإسلامية: (... ومطالباً بالتصدي لذلك؛ لأنّه يسهم في نشر الرذيلة بين المسلمين)، وكأنّه لم يلتفت إلى أنّ هذا الذي يسهم في نشر الرذيلة بين المسلمين، ورد في البخاري ومسلم ومن افترته على الرسول ﷺ هي عائشة، ولكنّه هل يستطيع أن يقول إنّ ما قامت به عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر كما هو مروي في البخاري ومسلم (يسهم في نشر الرذيلة بين المسلمين).

على كل حال هذه المصيبة وأنا اعتبرها مصيبة، ولكنّهم يعتبرونها مسألة خلافية وهم متنازعون فيها، إلى من يردّونها ؟! فلتفتهم الأخت السنيّة لعلها تفض نزاع القوم. فإن قالت إلى الله وتعني بذلك القرآن؛ لأنّه لا يوجد بين القوم نبي ولا وصي وإلى الرسول، وتعني بذلك السنة أو الحديث الذي رواه كل من البخاري ومسلم، فإنّها بذلك تؤيد د. عزّت عطية رئيس قسم الحديث بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر في فتواه؛ لأنّ القوم لم يجدوا في القرآن

ما يحرّم إرضاع الكبير ووجدوا في البخاري ومسلم ما يجوز إرضاع الكبير ووجدوا أنّ عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر عملتا بحديث إرضاع الكبير المفترى [١].

كما أنّ القوم يتشاورون في الرجوع إلى البرلمان المصري ليحل نزاعهم أو الضغط على عطية ليتراجع عن فتواه بالقوّة فأرجو أن تستعجل في إفتائهم إلى من يرجعون !!!

وأنا انتظر جواب الأخت السنيّة صاحبة الإشكالات المذكورة، وأرجو أن تكون منصفة في الجواب إن كانت تطلب الحق، واذكرها بقول رسول الله صلى الله عليه وآله لأبي ذر.

قال أبو ذر الغفاري: قال لي حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله: (**قل الحق يا أبا ذر وقد قلت الحق وما أبقى لي الحق من خليل**).

٤ عَنْ بُرَيْدٍ الْعِجْلِيِّ، قَالَ سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عز وجل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمانات إِلى أَهْلِها وَإِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾. قَالَ: (**إِيَّانَا عَنَى أَنْ يُؤَدِّيَ الْأَوَّلُ إِلَى الْإِمَامِ الَّذِي بَعْدَهُ الْكُتُبَ وَالْعِلْمَ وَالسِّلَاحَ. وَإِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ، الَّذِي فِي أَيْدِيكُمْ. ثُمَّ قَالَ لِلنَّاسِ: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ، إِيَّانَا عَنَى خَاصَّةً أَمَرَ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِطَاعَتِنَا، فَإِنْ خِفْتُمْ تَنَازُعاً فِي أَمْرٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ، كَذَا نَزَلَتْ وَكَيْفَ يَأْمُرُهُمُ اللَّهُ عز وجل بِطَاعَةِ وُلَاةِ الْأَمْرِ وَيُرَخِّصُ فِي مُنَازَعَتِهِمْ، إِنَّمَا قِيلَ ذَلِكَ لِلْمَأْمُورِينَ الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**)[٢]. في هذه الرواية بيان لنزول الآية من الله سبحانه وتعالى).

ثانياً: يحتجون كذلك بحديث لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق [٣]، قائلين أنه يقيد إطاعة أولي الأمر بخصوص ما يصدر عنهم من أوامر لا تخالف أحكام الله.

وفي الجواب أقول:

١- لقد تم الرد على هذه البدعة بالتفصيل في كتاب (بدعة رضاع الكبير ...). أحد إصدارات أنصار الإمام المهدي عليه السلام، فمن أراد التفصيل فعليه مراجعة الكتاب. (المعلق).

٢- الكافي: ج١ ص٢٧٦.

٣- انظر على سبيل المثال: من لا يحضره الفقيه - الشيخ الصدوق تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري: ج٢ ص٦٢١، ومجمع الزوائد – الهيثمي ١٤٠٨ - ١٩٨٨ م دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان: ج٥ ص٢٢٦، وغيرهما.

إن الإطاعة في الآية كما تقدم مطلقة غير مقيدة بشيء، وكون لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق صحيح في نفسه لا يعني أنه يقيد إطلاق الآية، بل الأولى أن يُقال أن هذا الحديث يؤكد عصمة أولي الأمر، بالتقريب التالي:

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

أولي الأمر مأمور بإطاعتهم إطاعة مطلقة.

إذن أولي الأمر لابد أن يكونوا معصومين لا يدخلون الناس في معصية.

أما افتراض كون الفكرة على النحو التالي:

الآية أمرت بإطاعة أولي الأمر.

ولكن ورد حديث: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

إذن إطاعة أولي الأمر مقيدة بعدم أمرهم بمعصية.

أقول: هذه الصورة الثانية من القياس تفترض سلفاً عدم وجود معصوم، فهي من هذه الجهة تصادر أصل البحث. إذ لو كانوا يحتملون وجود معصوم تجب طاعته وجوباً مطلقاً ولا أقول يفترضون وجوده بصورة مسبقة، بل يحتملون وجوده احتمالاً، وفرق بين افتراض وجوده مسبقاً، وبين احتمال وجوده، فاحتمال وجوده يعني عدم وجود حكم مسبق فيما يتعلق بوجوده أو عدمه، وترك المسألة للبحث والتقصي والدليل **أقول:** لو كانوا يحتملون وجود معصوم لما تحكموا بالدليل، وجعلوا من الحديث حاكماً على الآية، وقيدوها به، بينما الحديث لا يقيد الآية في الحقيقة طالما كان ممكناً الإبقاء على إطلاق الآية من جهة، وإطلاق الحديث من جهة أخرى، بأن نقول أن الحديث يقيّد إطاعة كل شخص بما في ذلك أمراء الجند وأمراء المناطق، وأمثالهم، بل كل شخص باستثناء ولي أمر الأمة والمسلمين عموماً، باعتبار أن لهذا الشخص خصوصية تميزه عن غيره، هي أنه المرجع في تحديد الحلال والحرام، والمعصية من غيرها، والآية التي نحن بصددها تكفلت بيان هذا التمييز.

أما الضرورة التي دعت لتمييزه فيمكن إجمال القول فيها بأن تحديد المعصية يمكن أن يختلف فيه الناس، بل حتى من نسميهم علماء يختلفون كما هو معروف للجميع، وكذلك يمكن للناس أن يروا فعلاً ما على أنه معصية، وليس هو كذلك لأسباب كثيرة، فلابد إذن من ميزان لا يُخطأ نعرض عليه الأفعال لنميز ما هو معصية عن غيره. وهذا الميزان لا يمكن أن يكون الكتاب والسنة، باعتبار وجودهما بيننا ومع ذلك نرى العلماء الذين يقولون أنهم يعتمدون عليهما يخطئون في تحديد الأحكام، ويختلفون، فالضرورة تقتضي إذن وجود من لا يخطئ في تحديد مرادات الكتاب والسنة، ويكون كلامه الفيصل والميزان، ولابد من إطاعة هذا الشخص وتعيينه للناس، والآية قيد البحث حددت عنوانه بوصفه ولي الأمر.

وبهذا نحتفظ للآية بإطلاقها، أو على الأقل نثبت عدم تمامية استدلالهم بالحديث على التقييد؛ لأن التقييد لابد فيه من دليل قاطع، لا يتطرق له الاحتمال.

من جهة أخرى يعني القول بتقييد الحديث للآية أنهم يقولون إن إطاعة الرسول هي بدورها مقيدة بعدم معصيته حاشاه وهو قول لا يستسيغه قلب مؤمن أبداً، فضلاً عن كونه يقلب الأمور رأساً على عقب، فيكون الناس هم من يحدد المعصية لا الرسول !

* * *

هل يعرف المعصوم كل العلوم الدنيوية ؟

وردت أحاديث صحيحة كثيرة تثبت للمعصومين من آل محمد عليهم السلام علماً جماً يتوارثونه عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنهم صلوات الله عليهم تتلقاهم الملائكة والروح القدس، وأنهم يزدادون، ويكفي من أراد أن يعرف ذلك أن ينظر ما ورد في الجزء الأول من كتاب الكافي لمؤلفه الشيخ الكليني (رحمه الله).

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: هل يقتضي هذا أنهم يعلمون فعلياً كل العلوم الدنيوية ولا أقول الأخروية فعلمهم بها مفروغ منه؛ لأنهم الأدلاء على الله من قبيل علم الطب والهندسة والفيزياء وما إلى ذلك، وأنهم بالتالي مستغنون عن تعلمها من غيرهم ؟

ما نسمعه من الناس هو أنهم عليهم السلام يعلمون كل هذا، ويبدو أن الأمر عقيدة راسخة في أذهان أكثرهم، إن لم نقل جميعهم، وأعني بالجميع الشيعة خصوصاً.

والحق أن اعتقاد الناس هذا منشؤه عدم دقتهم في فهم الأدلة، فلا أدري حقاً لماذا ذهلوا عن أخبار كثيرة تدل على خلاف ما يعتقدونه، منها الحادثة المشهورة في معركة الخندق حيث أشار سلمان رضوان الله عليه على رسول الله صلى الله عليه وآله بأن يحفر الخندق ويتحصن وراءه[1]، ومنها أن الحسن والحسين (عليهما السلام) أحضرا طبيباً من أطباء الكوفة لينظر في حالة الامام علي عليه السلام بعد أن ضربه اللعين ابن ملجم، ولو كان المعصوم يعلم هذه العلوم ما كان ثمة موجب للاستعانة بغيره، بل إن الاستعانة بالغير ستكون وحاشاهم سفهاً ومجانَبةً للحكمة. بل إن الطبيب الذي استدعوه كما ينص الخبر قد طلب عرق شاة حار للفحص، ولو كانوا يعرفون الطب لكانوا حضروا هذا العرق سلفاً، فجلبه يترتب عليه تأخير الفحص والعلاج كما هو واضح.

ورد في الثاقب في المناقب: (عن محمد بن قتيبة، عن مؤدب، كان لأبي جعفر عليه السلام قال: إنه كان بين يدي يوماً يقرأ في اللوح إذ رمى اللوح من يده وقام فزعاً وهو يقول: "**إنا لله وإنا إليه راجعون، مضى والله، مات أبي عليه السلام**" فقلت: من أين علمت هذا ؟ فقال: "**دخلني من إجلال الله وعظمته شيء لا أعهده**". فقلت: وقد مضى ؟! قال: "**دع عنك هذا، ائذن**

١- انظر على سبيل المثال: تاريخ اليعقوبي دار صادر - بيروت – لبنان: ج٢ ص٥٠.

لي أن أدخل البيت وأخرج إليك، واستعرضني بآي القرآن إن شئت سأفسر لك وتحفظه" فدخل البيت، فقمت ودخلت في طلبه إشفاقاً مني عليه، فسألت عنه فقيل: دخل هذا البيت ورد الباب دونه، وقال: "**لا تأذنوا عليّ لأحد حتى أخرج إليكم**" فخرج متغيراً وهو يقول: "**إنا لله وإنا إليه راجعون، مضى والله أبي**" فقلت: جعلت فداك، قد مضى ؟! فقال: "**نعم، وتوليت غسله وتكفينه، وما كان ذلك ليلي منه غيري**". ثم قال لي: "**دع عنك واستعرضني آي القرآن إن شئت أفسر لك تحفظه**". فقلت: الأعراف، فاستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ثم قرأ: "**بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾**[1]" فقلت: ﴿**المص**﴾[2] فقال: "**هذا أول السورة، وهذا ناسخ، وهذا منسوخ، وهذا محكم وهذا متشابه، وهذا خاص وهذا عام، وهذا ما غلط به الكتاب، وهذا ما اشتبه عليه الناس**. يقول المصنف (رضي الله عنه): إنه كان بالمدينة وأبوه بطوس. وروى ذلك أبو الصلت الهروي، وقال: لما مضى الرضا عليه السلام، وأغلقنا الباب دخل علينا فتى والباب مغلق من صفته كذا وكذا، والقصة مشهورة)[3].

فهذا الإمام أبي جعفر محمد الجواد عليه السلام يتعلم على يدي مؤدب، أي معلم، فهل كان حاشاه يصرف وقته عبثاً بتعلم أشياء يعلمها سلفاً ؟

وورد أن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام كان يتعلم الكتابة على يد معلم، ففي الهداية الكبرى: (عن محمد بن سنان، عن المفضل بن عمر، عن أبي عبد الله عليه السلام: **أن أعرابياً خرج من قومه حاجاً محرماً، فورد على ادحي نعام فيه بيض فأخذه واشتواه وأكل منه وذكره أن الصيد حرام، فورد المدينة فقال: أين الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله فقد جنيت عظيماً، فأرسل إلى أبي بكر فورد عليه وعنده ملأ من قريش فيهم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد والمغيرة بن شعبة، فسلم الأعرابي ثم قال: يا خليفة رسول الله أفتني، فقال له أبو بكر: قل يا أعرابي، فقال: إني خرجت من قومي حاجاً محرماً فأتيت على أدحي فيه بيض نعام**

١- الأعراف: ١٧١.
٢- الأعراف: ١.
٣- الثاقب في المناقب - ابن حمزة الطوسي: ص٥٠٩ – ٥١٠، وموسوعة الإمام الجواد عليه السلام - السيد الحسيني القزويني: ج١ ص٧٥ – ٧٦.

فأخذته واشتويته فأذن لي من الحج ما عليّ فيه حلال وما عليّ فيه حرام من الصيد. فاقبل أبو بكر على من حوله وقال: أنتم حواري رسول الله، فقال الزبير من دون الناس: أنت خليفة رسول الله ﷺ وأنت أحق بإجابته، فقال له أبو بكر: يا زبير، علي بن أبي طالب في صدرك، قال: وكيف وأمي صفية ابنة عبد المطلب عمة رسول الله، فقال الأعرابي: ما في القوم إلا من يجهد، وقال له الأعرابي: ما اصنع ؟ قال له الزبير: لم يبق في المدينة من نسأله بعد من حضر هذا المجلس إلا صاحب الحق الذي هو أولى بهذا المجلس منهم، قال الأعرابي: فترشدني إليه ؟ قال الزبير: إن أخباري يسومونه قوم ويحط آخرون، قال الأعرابي: قد ذهب الحق وصرتم تكرهون، قال عمر: إلى كم تطيل الخطاب يا ابن العوام قوموا بنا والأعرابي إلى علي فلا نسمع جواب هذه المسألة إلا منه. فقاموا بأجمعهم والأعرابي معهم حتى صاروا إلى أمير المؤمنين فاستخرجوه من بيته وقالوا للأعرابي: أقصص قصتك على أبي الحسن علي، قال الأعرابي: فلم أرشدتموني إلى غير خليفة رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ويحك يا أعرابي خليفة رسول الله أبو بكر وهذا وصيه في أهل بيته وخليفته وقاضي دينه ومنجز عداته ووارث علمه، قال الأعرابي: ويحكم يا أصحاب محمد والذي أشرتم إليه بالخلافة ما فيه من هذه الخصال خصلة واحدة، قالوا: ويحك يا أعرابي اسأل عن مسألتك ودع عنك ما ليس من شأنك، قال الأعرابي: يا أبا الحسن، يا خليفة رسول الله ﷺ، إني خرجت من قومي حاجاً محرماً، قال له أمير المؤمنين: تريد الحج، فوردت على أدحي فيه بيض نعام فأخذته واشتويته وأكلته، فقال الأعرابي: من سبقني بالخبر إليك ؟ فقال أمير المؤمنين عمن تحدث به في المجلس مجلس أبي بكر خليفة رسول الله فكيف لا يسبق الخبر إليه قال له أمير المؤمنين: فأفته يا أبا حفص، قال له أبو حفص: لو حضرت وعلمت الفتوى ما حملنا إليك. فقال أمير المؤمنين: أجل يا أعرابي عليك بالصبي الذي بين يدي معلمه ومؤدبه صاحب الرواية فإنه ابني الحسن فاسأله فإنه يفتيك. قال الأعرابي: إنا لله وإنا إليه راجعون مات دين محمد ﷺ بعد موته فحمد وتنازع أصحاب محمد وأزبد. قال أمير المؤمنين: حاش لله يا أعرابي لم يمت أبداً. قال الأعرابي: أفمن الحق أن أسأل خليفة رسول الله ﷺ وحوارييه وأصحابه ولا يفتوني ويحيلوني عليك وتحيلني وتأمرني أن أسأل الصبي الذي بين يدي معلمه لا يفصل بين الخير والشر ؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: يا أعرابي، لا تقل ما ليس لك به علم

واسأل الصبي فإنه يفتيك. فقام الأعرابي إلى الحسن عليه السلام وقلمه في يده يخط في الصحيفة ومؤدبه يقول: أحسنت أحسن الله إليك يا حسن. قال الأعرابي: يا مؤدب يحسن للصبي من إحسانه وما أسمعك تقول له شيئاً حتى كأنه بمؤدبك ؟ قال: فضحك القوم من الأعرابي وصاحوا به: ويحك يا أعرابي أوجز. قال الأعرابي: قد نبأتك يا حسن إني خرجت من قومي حاجاً محرماً فوردت على أدحي فيه بيض نعام فاشتويته وأكلته عامك هذا ناسياً. قال الحسن: زدت في القول يا أعرابي قولك عامداً لم يكن هذا عبثاً. قال الأعرابي: ما كنت ناسياً، فقال له الحسن وهو يخط في صحيفته : يا أعرابي، خذ بعدد البيض نوقاً فاحمل (أي فاعل) عليها فيقاً يعني ذكر النوق، فإذا أنتجت من قابل فاجعلها هدياً بالغ الكعبة كفارة لفعلك. قال الأعرابي: فديتك يا حسن إن من الإبل لما يزلقن. قال الحسن عليه السلام: يا أعرابي، وإن في البيض لما يمرقن. قال الأعرابي: أنت صبي محق وفي علم الله معروف ولو جاز أن يكون ما أقول لقلت إنك خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله. قال الحسن عليه السلام: ما ترى قوماً اختاروه فإذا أبغضوه عزلوه. فكبر القوم وعجبوا لما سمعوا من الحسن، فقال أمير المؤمنين عليه السلام الحمد لله الذي جعل في ابني هذا كما جعله في داود وسليمان فكان هذا من دلائله عليه السلام) [1].

هذه الروايات لا تناقض ما ورد من روايات تصف بحور علمهم المتلاطمة، فالحق أن كل العلوم تخرج منهم سلام الله عليهم، وهم مصدرها ومنبعها، فهم أبواب الله وعيبة علمه. ولكن علينا أن نميز بين حقيقتهم ووجودهم في هذه الدنيا، فهم في هذه الحياة الدنيا محجوبون بالجسد، والاتصال بما هو مسطور في عقولهم التامة يتم بالله سبحانه وتعالى، وبالحكمة التي يرتئيها هو عزّ وجلّ.

أجاب السيد أحمد الحسن عليه السلام على جواب وُجه له، يبين ما أحاول قوله، وإليكم السؤال وجوابه:

(**سؤال/ ١٥٧**:كيف يستزيد المعصوم من العلم كما هو وارد عنهم عليهم السلام؟ وهل هو يجهل ثم يعلم ؟

١- الهداية الكبرى - الحسين بن حمدان الخصيبي: ص١٨٧ – ١٨٩، وعنه مستدرك الوسائل - الميرزا النوري: ج٩ ص٢٦٦ – ٢٧١.

الجواب: بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآل محمد الأئمة والمهديين.

إذا كان المراد أنه يجهل بمعنى لا يعلم ثم يعلم فلا، وهذا خطأ، لكنه يدرك ما أودع في عقله التام بالله سبحانه وتعالى، حيث إنه عليه السلام محجوب بالجسد عند نزوله إلى عالم الأجسام في هذه الدنيا للامتحان، أي كما أنه محتاج إلى الله سبحانه وتعالى ليوصل قطرة الدم التي أودعها الله في قلبه إلى أطراف جسمه، كذلك هو محتاج لله ومفتقر إلى الله سبحانه وتعالى ليوصل له العلم الذي أودعه في عقله التام إلى نفسه في هذا العالم ، أي إنه يعلم ويزداد علماً مما أودع في عقله التام، أي وجوده في بيت الله (المقامات العشرة، عشرة الإيمان)، أي إنه يزداد علماً من علمه المكنون المخزون في قلبه أو عقله التام، (وليس العلم في السماء ولا في الأرض، ولكنه في الصدور فاستفهم الله يفهمك) [١].

ف . (الجامعة) و (الجفر) و (مصحف فاطمة) كلها علم وليست هي العلم، بل العلم هو ما يحدث في كل ساعة، وهو من المعصوم وإلى المعصوم [٢]، ﴿... **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾[٣]) [٤].

فالإمام إذن يعلم كل العلوم، بمعنى أنها مودعة في عقله التام، ولكنه في هذه الحياة المادية محجوب بالجسم عن المودع في عقله التام، غير أن اعتصامه بالله وتسديد الله له يمكِّنه من

١- روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: **(ليس العلم في السماء فينزل إليكم، ولا في تخوم الأرض فيخرج لكم، ولكن العلم مجبول في قلوبكم، تأدبوا بآداب الروحانيين يظهر لكم)** العلم والحكمة في الكتاب والسنة لمحمد الريشهري: ص٣٦، جامع الشتات للخواجوئي: ص٢١٥.

٢- وهذا ما ورد في الحديث الشريف، عن أبي بصير قال: (دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت له: جعلت فداك، إن شيعتك يتحدثون أن رسول الله صلى الله عليه وآله علم علياً عليه السلام باباً يفتح له منه ألف باب ؟ قال: فقال: **يا أبا محمد، علم رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام ألف باب يفتح من كل باب ألف باب،** قال: قلت: هذا والله العلم. قال: فنكت ساعة في الأرض، ثم قال: **إنه لعلم وما هو بذاك.** قال: ثم قال: **يا أبا محمد، وإن عندنا الجامعة وما يدريهم ما الجامعة ؟** قال: قلت: جعلت فداك وما الجامعة ... قال: **إنه لعلم وليس بذاك.** ثم سكت ساعة، ثم قال: **وإن عندنا الجفر وما يدريهم ما الجفر** ... قال: **إنه لعلم وليس بذاك.** ثم سكت ساعة ثم قال: **وإن عندنا لمصحف فاطمة عليها السلام وما يدريهم ما مصحف فاطمة عليها السلام؟** ... **إنه لعلم وما هو بذاك.** ثم سكت ساعة ثم قال: **إن عندنا علم ما كان وعلم ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة .. إنه لعلم وليس بذاك.** قلت: جعلت فداك فأي شيء العلم ؟ قال: **ما يحدث بالليل والنهار، الأمر من بعد الأمر، والشيء بعد الشيء إلى يوم القيامة)** الكافي: ج١ ص٢٣٨.

٣- البقرة: ٢٨٢.

٤- المتشابهات الأجزاء الأربعة: ص٢٥٠ وما بعدها.

معرفة ما هو مودع في عقله التام متى احتاج أن يعرفه. فإذا احتاج لمعرفة علم من العلوم، كأن تتوقف عليه هداية بعض البشر، أو لمصلحة ما يُعلمه الله تعالى ويوصله بما اختزنه عقله التام.

وهكذا وكما دلت عليه الروايات يمكن للإمام أن يتبع الطرق والأسباب العادية في معرفة علم من العلوم الدنيوية كالهندسة والفيزياء وغيرها، وليس بالضرورة أن يتم هذا الأمر بالطريق غير العادي، إلا إذا استلزمت حكمة أو مصلحة ذلك.

* * *

معالجة شبهة:

هذه شبهة، أو قل مغالطة أرشدني أحد الأخوة الأنصار وفقهم الله لقول كلمة فيها؛ لأنها تتردد على ألسنة بعض المعاندين، ومفادها كالآتي: الشيعة ولزمن طويل أخذوا أحكامهم من أحاديث ينقلها رواة ليسوا بمعصومين، مما يعني أنهم استغنوا عن المعصوم، وإذا أمكن الاستغناء عنه في زمن لا يعود وجوده ضرورياً بين الناس.

جواب هذه الشبهة:

١ الاعتماد على الأحاديث الواردة عن آل محمد يعني إننا نعتمد على كلام المعصومين دون سواهم، إذ ليس لرواة الحديث من دور هنا سوى دور النقل.

٢ إذا قيل إنّ الرواة قد يُخطئون النقل، وقد، وقد، وبالتالي يكون توسط الرواة بيننا وبين المعصومين وهم قناة غير معصومة مظنة وقوع في الخطأ، فإننا نقول: إن كلام المعاند يُضمر افتراض أن وجود المعصوم أفضل من عدم وجوده، فوجوده يمنع الوقوع في الخطأ، بعكس عدمه، وهذا يعني أنه يُقر بأن وجوده ضرورة تحتمها صيانة الأمة من الوقوع في الخطأ.

هنا إذن لدينا مسألتان؛ الأولى نظرية، وهي: هل إن ضرورة صون الأمة من الوقوع في الخطأ تحتم وجود المعصوم أم لا ؟ وهذه المسألة هي المطلوبة والمبحوث عنها، وجوابها واضح للغاية، فلا أظن أحداً يخالف القول بضرورة وجود المعصوم، إلا من ركب رأسه؛ لأن هذا

السؤال هو نفس السؤال القائل: هل وجود النبي بيننا أفضل، أم عدم وجوده ؟ وبطبيعة الحال وجوده أفضل. والمعصوم وجوده هو نفس وجود النبي من جهة أنه صمام أمان للأمة.

المسألة الثانية واقعية، وهي: إن المعصوم غاب زمناً ما، واعتمدنا على الإرث الذي تركه لنا، وهذه المسألة مغالطة يراد منها الالتفاف على المسألة الأولى الحقيقية وتمييعها؛ لأن هذه المسألة تتجنب الخوض في أصل المبدأ الذي تمثله المسألة الأولى، وهو موضع التراع كما سلف القول، وتريد الاستعاضة عنه بموضوع آخر يستلون منه قضية تقول: لو كان وجود المعصوم ضرورياً لما غاب. أي إنهم ينقضون بزعمهم على المسألة الأولى.

ولكننا نقول: إن النقض المزعوم يكون له وجه لو كان غياب المعصوم باختيار منه، أي إنه وقع بسبب شعور المعصوم بأن الأمة غير محتاجة لوجوده، أما إن كانت الأمة هي من رفضته، واضطرته للغياب عنها وهذا هو الواقع فلا وجه لهذا النقض، إلا إذا قالوا إن الأمة الآن في أكمل حالاتها، ولا يقوله غير منكوس يرى المنكر معروفاً. وبعبارة أخرى: نقضهم المزعوم هذا أشبه بنقض من رفض مصاحبة دليل في الصحراء فتاه في مطاويها، ولكنه يملك لساناً طويلاً يهرف به قائلاً: ها أنا استغنيت عن الدليل ولا حاجة لي به !؟

بل نقول له إن لسان حالك يصرخ بعكس ما يلهج به لسانك الطويل، فانتبه لنفسك.

٣ إن الأحاديث التي نأخذها من الرواة لا نأخذها بلا شرط، بل لابد من توافر قرائن تدلنا على صحة صدورها، وعليه لا مدخلية لشخوص الرواة غير المعصومين بالأخذ، أو عدمه. بل هنا مسألة حري بالناس الالتفات إليها، وهي إن من يصطنع منهجاً يعتمد على اشتراط توافر قرائن الصحة، وكذلك من يشترط منهجاً قائماً على توثيق الرواة، إنما يلجأ لهذا المنهج من منطلق فكرة مهمة هي أن يضمن صحة ما يقبله، وما المنهج المصطنع سوى وسيلة لسد الثلمة المتوقعة في القناة أي وجود الرواة غير المعصومين للوصول إلى نتيجة قطعية معصومة من الخطأ. فهم إذن ينطلقون شعروا بذلك أم لم يشعروا من فكرة أن وجود القناة المعصومة أفضل من عدم وجودها، فعلى أي شيء إذن يعترضون ؟؟؟

* * *

هل يعلم المعصوم الغيب ؟

على الرغم من ورود الكثير جداً من الروايات التي أظهر فيها المعصومون الكثير من المغيبات، ولا أقل ما يتعلق منها بالإمام المهدي وحركته وحوادث عصره، بل إن بعض الإخبارات الغيبية التي صدرت منهم شهد الجميع أنها قد تحققت فلا مجال للإنكار من هذه الناحية على الإطلاق، أقول على الرغم من هذا، فإن هذه الإخبارات هي بدورها محكومة لوظيفتهم كأدلاء وهداة، وبالتالي هي لا تأتي اعتباطاً، وبصورة مجانية، بل بحسب الحكمة والمصلحة التي يقتضيها وظيفتهم عليهم السلام.

قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾[1]. وكونه رسول فيه إشارة إلى الوظيفة المذكورة.

وبطبيعة الحال فإن عالِم الغيب في الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى، أما رسله فيعلمون الغيب بالمقدار الذي يُظهره لهم، ولكن أيضاً علينا أن نلاحظ أن مفهوم الغيب نسبي، بمعنى أن ما يكون غيباً بالنسبة لـ (س) من الناس قد لا يكون كذلك بالنسبة لـ (ص). فإذا كان الغيب هو الغائب، أو المحجوب عن الإدراك، فإنه يصدق حتى على الأمور والحوادث المادية، فهي غيب بالنسبة لمن لم يشهدها، و لم يبلغه خبرها، وليست كذلك بالنسبة لمن شهدها، أو بلغه خبرها. بل لعل أمراً نشهده، ومع ذلك تكون حقيقته أو بعض تفاصيله أو متعلقاته غيباً بالنسبة لنا لعدم وقوفنا عليها، فالأمر الواحد يكون غيباً من جهة، أو بلحاظ ما، وشهادة من جهة أخرى، ولحاظ آخر.

كذلك قد نسمي شيئاً غيباً، وليس هو غيب بالنسبة لنا، وإنما بالنسبة لغيرنا، فالله عزوجل يسمي الغيب غيباً في القرآن، ولكنه ليس غيباً بالنسبة له سبحانه.

وبقدر تعلق الأمر بالمعصوم الذي تعبدنا الله بطاعته، وهم آل محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام، فإن شيئاً قد يكون غيباً بالنسبة لهم ولا يعرفونه، ولكنه كذلك بالنسبة لهم في هذه النشأة أو في عالم الأجسام الذي يحجبهم عن عقولهم التامة، وليس هو كذلك بالنسبة لعلمهم الحقيقي ولعقلهم التام الكامل.

١- الجن: ٢٦ – ٢٧.

ولعلنا بهذا نستطيع أن نفهم ما ورد عنهم من أحاديث قد يراها البعض متناقضة، أو متعذرة الجمع، لأنه لا يميز بين علمهم عليهم السلام وهو محجوبون بالجسم المادي، وبين علمهم المكنون في عقولهم التامة. فهم حين يقولون نعلم كل شيء مثلاً، فمرادهم الإشارة إلى ما هو مخزون في عقولهم التامة، وحين يقول أحدهم إنه يجهل مكان جاريته وليس بينه وبينها سوى ستار، فإنما يشير إلى وجوده في عالم المادة.

* * *

هل المعصوم يعرف كل اللغات ؟

ورد في بصائر الدرجات: روى يعقوب بن يزيد، عن ابن أبي عمير، عن رجاله، عن أبي عبد الله عليه السلام، يرفع الحديث إلى الحسن بن علي عليه السلام أنه قال: (**إن لله مدينتين إحديهما بالمشرق والأخرى بالمغرب عليهما سوران من حديد وعلى كل مدينة ألف ألف مصراع من ذهب وفيها سبعون ألف ألف لغة يتكلم كل لغة بخلاف لغة صاحبه وأنا أعرف جميع اللغات وما فيهما وما بينهما وما عليها حجة غيري والحسين أخي**) [1].

وفيه كذلك: حدثنا الحسين بن محمد بن عامر، عن معلى بن محمد الأصفهاني، عن محمد بن جمهور، عن سليمان بن سماعه، عن عبد الله بن القاسم، عن سماعة، عن مهران، عن أبي الجارود، عن أبي سعيد، قال: قال الحسن بن علي: (**أن لله مدينة بالمشرق ومدينة بالمغرب على كل واحدة سور من حديد في كل سور سبعون ألف مصراع من ذهب تدخل من كل مصراع سبعون ألف لغة آدميين وليس فيها لغة إلا مخالف للأخرى وما منها لغة إلا وقد علمتها ولا فيهما ولا بينهما ابن نبي غيري وغير أخي وأنا الحجة لهم**) [2].

وفي الكافي: (أحمد بن محمد ومحمد بن يحيى، عن محمد بن الحسن، عن يعقوب بن يزيد، عن ابن أبي عمير، عن رجاله، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: (**إن الحسن عليه السلام قال: إن لله مدينتين إحداهما بالمشرق والأخرى بالمغرب، عليهما سور من حديد وعلى كل واحد منهما ألف ألف مصراع وفيها سبعون ألف ألف لغة، يتكلم كل لغة بخلاف لغة صاحبها وأنا أعرف جميع اللغات وما فيهما وما بينهما، وما عليهما حجة غيري وغير الحسين أخي**)[3].

يظهر من هذه الروايات أنهم عليهم السلام يعلمون جميع اللغات، ولكن لنقرأ روايات أخرى لكي تتضح لنا الصورة:

١- بصائر الدرجات - محمد بن الحسن الصفار: ص٣٥٩.
٢- نفسه: ص٥١٤.
٣- الكافي - الشيخ الكليني: ج١ ص٤٦٢ ح٥.

ورد في بصائر الدرجات: حدثنا محمد بن الحسين، عن موسى بن سعدان، عن عبد الله بن القاسم، عن صباح المزني، عن الحرث بن حصيرة، عن حبة بن جوين العرني، قال: (سمعت أمير المؤمنين علياً عليه السلام يقول: **إن يوشع بن نون كان وصي موسى بن عمران وكانت ألواح موسى عن زمرد أخضر، فلما غضب موسى أخذ الألواح من يده فمنها ما تكسر ومنها ما بقي ومنها ما ارتفع، فلما ذهب عن موسى الغضب قال يوشع بن نون أ عندك تبيان ما في الألواح ؟ قال نعم، فلم يزل يتوارثها رهط من بعد رهط حتى وقعت في أيدي أربعة رهط من اليمن، وبعث الله محمداً صلى الله عليه وآله بتهامة وبلغهم الخبر فقالوا ما يقول هذا النبي صلى الله عليه وآله ؟ قيل ينهى عن الخمر والزنا ويأمر بمحاسن الأخلاق وكرم الجوار، فقالوا هذا أولى بما في أيدينا منا فاتفقوا أن يأتوه في شهر كذا وكذا فأوحى الله إلى جبرئيل أن ائت النبي صلى الله عليه وآله فأخبره، فأتاه فقال إن فلاناً وفلاناً وفلاناً وفلاناً ورثوا ألواح موسى وهم يأتوك في شهر كذا وكذا في ليلة كذا وكذا، فسهر لهم تلك الليل فجاء الركب فدقوا عليه الباب وهم يقولون: يا محمد، قال: نعم يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان أين الكتاب الذي توارثتموه من يوشع بن نون وصي موسى بن عمران ؟ قالوا: نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله، والله ما علم به أحد قط منذ وقع عندنا قبلك، قال: فأخذه النبي صلى الله عليه وآله فإذا هو كتاب بالعبرانية دقيق فدفعه إليّ ووضعته عند رأسي فأصبحت بالكتاب وهو كتاب بالعربية جليل فيه علم ما خلق الله منذ قامت السماوات والأرض إلى أن تقوم الساعة فعلمت ذلك**) [1].

وفيه كذلك: حدثنا أبو محمد، عن عمران بن موسى، عن موسى بن جعفر البغدادي، عن علي بن أسباط، عن محمد بن الفضيل، عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: (**إن في الجفر أن الله تبارك وتعالى لما أنزل ألواح موسى عليه السلام أنزلها عليه وفيها تبيان كل شيء وهو كائن إلى أن تقوم الساعة، فلما انقضت أيام موسى أوحى الله إليه أن استودع الألواح وهي زبرجدة من الجنة الجبل، فأتى موسى الجبل فانشق له الجبل فجعل فيه الألواح ملفوفة، فلما جعلها فيه انطبق الجبل عليها فلم تزل في الجبل حتى بعث الله نبيه محمداً، فأقبل ركب من اليمن يريدون النبي فلما انتهوا إلى الجبل انفرج الجبل وخرجت**

١- بصائر الدرجات: ص١٦١.

الألواح ملفوفة كما وضعها موسى فأخذها القوم فلما وقعت في أيديهم ألقي في قلوبهم أن لا ينظروا إليها وهابوها حتى يأتوا بها رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنزل الله جبرئيل على نبيه فأخبره بأمر القوم وبالذي أصابوا، فلما قدموا على النبي صلى الله عليه وآله ابتدأهم النبي فسألهم عما وجدوا فقالوا: وما علمك بما وجدنا ؟ فقال: أخبرني به ربي وهي الألواح، قالوا نشهد أنك رسول الله فأخرجوها ودفعوها إليه فنظر إليها وقرأها وكتابها بالعبراني، ثم دعا أمير المؤمنين عليه السلام فقال: دونك هذه ففيها علم الأولين وعلم الآخرين وهي ألواح موسى وقد أمرني ربي أن أدفعها إليك، قال: يا رسول الله لست أحسن قراءتها، قال: إن جبرئيل أمرني أن آمرك أن تضعها تحت رأسك ليلتك هذه فإنك تصبح وقد علمت قراءتها، قال: فجعلها تحت رأسه فأصبح وقد علمه الله كل شيء فيها، فأمره رسول الله صلى الله عليه وآله أن ينسخها، فنسخها في جلد شاة وهو الجفر وفيه علم الأولين والآخرين، وهو عندنا والألواح وعصا موسى عندنا ونحن ورثنا النبي صلى الله عليه وآله) [1].

وفي كتاب سليم بن قيس: أبان، عن سليم، قال: (أقبلنا من صفين مع أمير المؤمنين عليه السلام، فنزل العسكر قريباً من دير نصراني، فخرج إلينا من الدير شيخ كبير جميل حسن الوجه حسن الهيئة والسمت ومعه كتاب في يده حتى أتى أمير المؤمنين عليه السلام فسلم عليه بالخلافة، فقال له علي عليه السلام: **مرحباً يا أخي شمعون بن حمون كيف حالك رحمك الله**، فقال: بخير يا أمير المؤمنين وسيد المسلمين ووصي رسول رب العالمين، إني من نسل رجل من حواري أخيك عيسى ابن مريم عليه السلام وأنا من نسل شمعون بن يوحنا وصي عيسى ابن مريم، وكان من أفضل حواري عيسى ابن مريم عليه السلام الاثني عشر وأحبهم إليه وآثرهم عنده، وإليه أوصى عيسى ابن مريم عليه السلام، وإليه دفع كتبه وعلمه وحكمته فلم يزل أهل بيته على دينه متمسكين بملته فلم يكفروا ولم يبدلوا ولم يغيروا، وتلك الكتب عندي إملاء عيسى ابن مريم وخط أبينا بيده وفيها كل شيء يفعل الناس من بعده ملك ملك وكم يملك وما يكون في زمان كل ملك منهم حتى يبعث الله رجلاً من العرب من ولد إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن من أرض تدعى تهامة من قرية يقال لها مكة يقال له أحمد، الأنجل العينين المقرون الحاجبين صاحب الناقة والحمار والقضيب والتاج يعني العمامة له اثنا عشر اسماً، ثم ذكر مبعثه ومولده

١- بصائر الدرجات: ص١٥٩ – ١٦٠، وانظر: تفسير العياشي: ج٢ ص٢٨.

وهجرته ومن يقاتله ومن ينصره ومن يعاديه وكم يعيش وما تلقى أمته من بعده من الفرقة والاختلاف وفيه تسمية كل إمام هدى وإمام ضلالة إلى أن يترل الله عيسى ابن مريم من السماء، فذكر في الكتاب ثلاثة عشر رجلاً من ولد إسماعيل بن إبراهيم خليل الله هم خير من خلق الله وأحب من خلق الله إلى الله، وإن الله ولي من والاهم وعدو من عاداهم، من أطاعهم اهتدى ومن عصاهم ضل، طاعتهم لله طاعة ومعصيتهم لله معصية، مكتوبة فيه أسماؤهم وأنسابهم ونعتهم وكم يعيش كل رجل منهم واحداً بعد واحد وكم رجل منهم يستسر بدينه ويكتمه من قومه ومن يظهر منهم ومن يملك وينقاد له الناس حتى يترل الله عيسى ابن مريم عليه السلام على آخرهم فيصلي عيسى خلفه، ويقول إنكم أئمة لا ينبغي لأحد أن يتقدمكم فيتقدم فيصلي بالناس وعيسى خلفه في الصف الأول، أولهم أفضلهم وآخرهم له مثل أجورهم وأجور من أطاعهم واهتدى بهداهم بسم الله الرحمن الرحيم أحمد رسول الله واسمه محمد وياسين وطه ون والفاتح والخاتم والحاشر والعاقب والماحي وهو نبي الله وخليل الله وحبيب الله وصفيه وأمينه وخيرته، يرى تقلبه في الساجدين يعني في أصلاب النبيين، ويكلمه برحمته فيذكر إذا ذكر وهو أكرم خلق الله على الله وأحبهم إلى الله، لم يخلق الله خلقاً ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً من آدم فمن سواه خيراً عند الله كتاب ولا أحب إلى الله منه، يقعده الله يوم القيامة على عرشه ويشفعه في كل من شفع فيه، وباسمه جرى القلم في اللوح المحفوظ في أم الكتاب وبذكره محمد رسول الله ثم أخوه صاحب اللواء يوم القيامة يوم الحشر الأكبر وأخوه ووصيه ووزيره وخليفته في أمته وأحب خلق الله إلى الله بعده علي بن أبي طالب، ولي كل مؤمن بعده، ثم أحد عشر إماماً من ولد أول الاثني عشر، اثنان سميا ابني هارون شبر وشبير وتسعة من ولد أصغرهما وهو الحسين، واحداً بعد واحد، آخرهم الذي يصلي عيسى ابن مريم خلفه، فيه تسمية كل من يملك منهم ومن يستسر بدينه ومن يظهر، فأول من يظهر منهم يملأ جميع بلاد الله قسطاً وعدلاً، ويملك ما بين المشرق والمغرب حتى يظهره الله على الأديان كلها.

فلما بعث النبي صلى الله عليه وآله وأبي حي صدق به وآمن به وشهد أنه رسول الله وكان شيخاً كبيراً، ولم يكن به شخوص فمات أبي وقال لي: إن وصي محمد وخليفته الذي اسمه في هذا الكتاب ونعته سيمر بك إذا مضى ثلاثة أئمة من أئمة الضلالة والدعاة إلى النار المسمين بأسمائهم

وقبائلهم فلان وفلان وفلان ونعتهم وكم يملك كل واحد منهم، فإذا مر بك فاخرج إليه وبايعه وقاتل معه عدوه فإن الجهاد معه كالجهاد مع محمد، والموالي له كالموالي لمحمد، والمعادي له كالمعادي لمحمد، وفي هذا الكتاب يا أمير المؤمنين إن اثني عشر إماماً من قريش من قومه يعادون أهل بيته ويمنعونهم حقهم ويقتلونهم ويطردونهم ويحرمونهم ويتبرءون منهم ويخيفونهم مسمون واحداً بعد واحد بأسمائهم ونعوتهم وكم يملك كل رجل منهم وما يملك وما يلقى منهم ولدك وأنصارك وشيعتك من القتل والخوف والبلاء، وكيف يديلكم الله منهم ومن أوليائهم وأنصارهم، وما يلقون من الذل والحرب والبلاء والخزي والقتل والخوف منكم أهل البيت، ثم قال: يا أمير المؤمنين، ابسط يدك أبايعك فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأشهد أنك خليفة رسول الله في أمته ووصيه وشاهده على خلقه وحجته في أرضه، وأن الإسلام دين الله وإني أبرأ من كل دين خالف دين الإسلام فإنه دين الله الذي اصطفاه لنفسه ورضيه لأوليائه، وإنه دين عيسى ابن مريم ومن كان قبله من أنبياء الله ورسله، وهو الذي دان به من مضى من آبائي وإني أتولاك وأتولى أولياءك وأبرأ من عدوك وأتولى الأحد عشر الأئمة من ولدك وأبرأ من عدوهم وممن خالفهم وبرئ منهم وادعى حقهم وظلمهم من الأولين والآخرين، ثم تناول يده و بايعه، ثم قال له أمير المؤمنين عليه السلام: **ناولني كتابك،** فناوله إياه فقال علي عليه السلام لرجل من أصحابه: **قم مع هذا الرجل فانظر ترجماناً يفهم كلامه فلينسخه لك بالعربية مفسراً،** فأتاه مكتوباً بالعربية فلما أتاه به قال لابنه الحسن عليه السلام: **يا بني، ائتني بالكتاب الذي دفعته إليك،** فأتاه به فقال: **أنت يا بني اقرأه وانظر أنت يا فلان الذي تستجهل في نسخة هذا الكتاب فإنه خطي بيدي وإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله عليّ،** فقرأه فما خالف حرفاً واحداً ليس فيه تقديم ولا تأخير كأنه إملاء رجل واحد على رجلين فحمد الله أمير المؤمنين عليه السلام وأثنى عليه وقال: **الحمد لله الذي لو شاء لم تختلف الأمة ولم تفترق، والحمد لله الذي لم ينسني ولم يضع أمري ولم يخمل ذكري عنده وعند أوليائه إذ صغر وخمل ذكر أولياء الشيطان وحزبه.** ففرح بذلك من حضر عند أمير المؤمنين عليه السلام من شيعته وشكر وساء ذلك كثيراً ممن حوله حتى عرفنا ذلك في وجوههم وألوانهم) [1].

١- كتاب سليم بن قيس. تحقيق محمد باقر الأنصاري: ص٢٥٢ وما بعدها الحديث السادس عشر .

إذن هنا روايات تنص على أنهم عليهم السلام يعلمون كل اللغات، وروايات أخرى تنص على أن علياً عليه السلام لا يُحسن قراءة العبرانية، فما السبيل للجمع بين تعارضها ؟

واضح إن كونهم عليهم السلام يعلمون كل اللغات يُقصد منه أن هذه اللغات معلومة لعقولهم التامة، ولكنهم محجوبون في عالم الأجسام عنها، وبالنتيجة هم لا يعلمون إلا ما يمكّنهم الله من معرفته، فإذا ما احتاجوا معرفة لغة ما لغاية ما يسّر الله لهم الاتصال بعقولهم التامة.

* * *

هل آباء المعصوم معصومون ؟

السؤال الذي يحمله العنوان يستهدف معالجة شبهة عالقة في أذهان بعض الناس، فالبعض ربما اعترض الأخوة الأنصار بالسؤال عن آباء السيد أحمد الحسن بسؤال محوره: هل آباء السيد أحمد الحسن عليه السلام معصومون ؟ والسائل يقصد الآباء الذين يتوسطون بينه وبين أبيه الإمام المهدي سلام الله عليه.

وقد يكون في ذهن السائل بعض النصوص التي سمعها من قبيل ما ورد عن آل محمد عليهم السلام ولاسيما في زياراتهم: (**يا مولاي يا أبا عبد الله أشهد أنك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة لم تنجسك الجاهلية بأنجاسها ولم تلبسك من مدلهمات ثيابها**) [1].

وفي الجواب أقول: لابد للسائل أن يفهم أن العصمة هي الاعتصام بالله عز وجل، وهي بالتالي فعل المعصوم، أو المعتصم بالله الصادر عنه نتيجة إخلاصه وإيمانه الراسخ بالله سبحانه وتعالى، وليس هي إذن حالة نفسية أو عضوية متوارثة يتلبس بها الإنسان بالضرورة ودون أن يكون لمستواه الإيماني دور في إيجادها، كما قد يتصوره البعض.

وعليه إذا كان آباء المعصوم معصومين هم بدورهم فالأمر لا علاقة له بوراثة، بل هم اعتصموا بالله وتحقق له التوفيق والتسديد والعصمة.

إذا اتضح هذا فسيتضح أن السؤال عن عصمة آباء المعصوم أو عدمها أمر لا مدخلية له في التعرف على عصمة المعصوم، وهو بالنتيجة سؤال لا معنى له.

١- مصباح المتهجد – الشيخ الطوسي: ص٧٢١.

كذلك علينا أن نفهم أن العصمة أمر باطني وبالنتيجة لا يُعرف المعصوم إلا بالنص عليه من قبل الله عزّ وجلّ العالم ببواطن العباد، أو من قبل من يُعلمه الله سبحانه، ومعلوم أن النص الذي يخرج للناس وظيفته تعريفهم بتكليفهم، وتكليف الناس هو أن يتبعوا حجج الله دون سواهم، ولهذا اقتصر النص على بيان هؤلاء الحجج عليهم السلام، وربما يكون هناك معصومون كثر سواهم ولكن لم يُنص عليهم لانتفاء الداعي لمثل هذا النص، وربما أشير إلى عصمة بعض غير الحجج لدواعٍ معينة.

إذن أنصار الإمام المهدي وسيدهم اليماني الموعود لم يصدر من أحد منهم قول أو إشارة يُفهم منها أن آباء السيد أحمد الحسن المخصوصين بالسؤال حجج لكي يقع السؤال عن حالهم.

* * *

ما يتعلق بوقت العصمة:

يُجمل مركز الرسالة الأقوال في المسألة على النحو التالي:

(**الأول**: وهو مذهب أصحابنا: وهو أنّه من وقت ولادتهم إلى أن يلقوا الله سبحانه.

الثاني: مذهب كثير من المعتزلة: وهو أنّه من حين بلوغهم، ولا يجوز عليهم الكفر والكبيرة قبل النبوة.

الثالث: وهو قول أكثر الأشاعرة ومنهم الفخر الرازي، وبه قال أبو هذيل، وأبو علي الجبائي من المعتزلة: إن فيجوز صدور المعصية عنهم [1]. هذا مجمل القول في الآراء حول العصمة) [2].

ولعل ما ذكره المركز بخصوص موقف علماء الشيعة من المسألة يمثل ما يمكن أن نصطلح عليه بالموقف الرسمي لعلماء الشيعة، على الرغم من إننا قد نجد في كلمات بعضهم ما يخالف هذا الموقف، من قبيل قول الشيخ المفيد التالي: (إنّ الذي أذهب إليه في هذا الباب إنّه لا يقع

١- كذا ولعل العبارة ناقصة، وإن كان المفهوم منها واضح إن شاء الله.
٢- العصمة: حقيقتها، أدلتها - مركز الرسالة: ص٢٤.

من الأنبياء عليهم السلام ذنب بترك واجب مفترض ولا يجوز عليهم خطأ في ذلك ولا سهو يوقعهم فيه، وإن جاز منهم ترك نفل ومندوب إليه على غير القصد والتعمد، ومتى وقع ذلك منهم عوجلوا بالتنبيه عليه فيزولون عنه في أسرع مدة وأقرب زمان، فأما نبينا صلى الله عليه وآله خاصة والأئمة من ذريته عليهم السلام فلم يقع منهم صغيرة بعد النبوة والإمامة من ترك واجب، ولا مندوب إليه، لفضلهم على من تقدّمهم من الحجج عليهم السلام، وقد نطق القرآن بذلك، وقامت الدلائل منه ومن غيره على ذلك للأئمة من ذريته عليهم السلام) [١].

فقوله: (بعد النبوة والإمامة) قد يُستشف منه أنه يقول بوقوعها منهم قبلهما.

والموقف الرسمي المذكور عبر عنه العلامة الحلي في (نهج المسترشدين)، بقوله: (إنّه لا يجوز أن يقع منه الصغائر والكبائر لا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً في التأويل. ويجب أن يكون مترّهاً عن ذلك كلّه من أول عمره إلى آخره) [٢].

ويبررون موقفهم هذا بفكرة أن عدم عصمتهم في زمن ما يساوق وقوعهم في المعاصي، وارتكاب ما يُنفّر الناس منهم، وهم أي العلماء يفهمون أن المعصومين هم الحجج حصراً، وبالتالي وقوع ما ينفر منهم قبل زمن حجيتهم ينعكس على قبول الناس لهم كحجج.

ولا أدري لماذا لم يلاحظوا أن النتيجة، وهي العصمة، أكبر من السبب، وهو الحرص على عدم تنفير الناس من الحجة. فقد كان يكفيهم أن يقولوا على سبيل المثال أن الحجة لا يرتكب ما ينفر الناس منه، وهذا كما هو واضح لا يساوي العصمة.

وبقدر تعلق الأمر بمسألتنا علينا أن نتذكر دائماً أن ما تعنينا معرفته حقاً هو أن حجة الله معصوم لا يدخل الناس في باطل ولا يخرجهم من حق، وهذا يعني أن الزمنية التي تعنينا حقاً هي زمنية خلافته الفعلية. بمعنى إننا يكفينا أن نعلم على نحو القطع أن الحجة، أو الخليفة معصوم.

١- مصنفات الشيخ المفيد - الشيخ المفيد: ج٢ ص١٠٣، نقلاً عن العصمة - مركز الرسالة: ص٢٤ – ٢٥.
٢- العصمة - مركز الرسالة: ص٢٧ – ٢٨.

نعم، يكون هناك وجه للبحث في عصمته قبل مباشرته الفعلية لوظيفته كخليفة فيما لو كان لهذا أثر على اعتقادنا أو قطعنا بعصمته إبان خلافته الفعلية، والحال إن علمنا بعصمته مصدره النص، وليس لأفهامنا أو آرائنا دور في تحديدها، فينتفي الوجه.

وعلى أي حال، قد لا يشك عاقل في أن الحديث عن العصمة منذ اليوم الأول للولادة أمر أقرب إلى اللغو، اللهم إلا إذا كان المفهوم من العصمة أنها إجبار لا إرادة للمعصوم فيه، وهذا يلزمهم كما لا يخفى.

نعم، بالنسبة للسن التي يكون فيها الإنسان مُميزاً وهي سن تختلف بين إنسان وآخر يمكن الحديث عن العصمة، والاعتصام، والحديث هذا يشمل كل المرحلة التي تسبق تولي الخليفة مهامه كخليفة فعلي، ويدخل في إطارها كذلك كل معصوم محجوج لخليفة الله الفعلي.

وعصمتهم هنا يحددها مقدار تمسكهم وإتباعهم، أو قل اعتصامهم بخليفة الله، فخليفة الله هو من يعصمهم طالما اعتصموا به. واعتصامهم بخليفة الله هو عين اعتصامهم بالله، باعتبار الخليفة هو وجه الله الذي يواجه به عباده، وهو الله في الخلق، وبالتالي تكون عصمة خليفة الله لهم هي عصمة الله ﷻ لهم.

بقي أن نعرف أن ما تقدم لا ينافي إمكانية أن يكونوا مسددين بملائكة الله، فمن المعلوم أنه حتى هذه الملائكة تطيع خليفة الله.

وفي هذا الصدد يمكن أن نرى في كثير من النصوص أن خلفاء الله مسددين ومحفوفين بعناية إلهية خاصة، فقد يوكل الله بهم ملائكة تأخذ بأيديهم إلى الخيرات، وهذا قد يرى فيه البعض نقضاً لحديثنا السالف. ولكن علينا أن نلاحظ هنا أمراً مهماً هو أن هذا الشخص المحفوف بالعناية سيتعرض شأنه شأن غيره من البشر للامتحان الإلهي، وستكون نتيجة الامتحان هذا الفيصل الذي يتقرر على أساسه استحقاقه عناية الله وتوفيقه وعصمته.

نعم قد يُشكل بالقول: لماذا هذا الاختصاص له بالعناية دون سواه من البشر، والجواب إن النصوص وإن كانت تمنحنا أن نقطع بهذه العناية بالنسبة لحجة الله، غير إن هذا لا يمنع أن

تكون شاملة لغيره من البشر أيضاً، سواءً أسعفتنا النصوص في هذا المجال، أم لم تسعفنا، فليس كل ما لم يرد فيه نص غير متحقق. وعلى فرض شمولها لغير حجة الله يسقط الإشكال كما هو واضح.

ولو تقيدنا بتخصيصها بحجة الله فإنها لا مدخلية لها في عصمته طالما علمنا أنه كغيره سيكون ممتحناً، وستكون عصمته استحقاقاً يظفر به نتيجة إخلاصه واعتصامه بالله سبحانه وتعالى.

وربما يمكن تقرير المسألة بصياغة أخرى قد تكون أكثر وضوحاً فأقول: إن العصمة صراع متواصل لا هوادة فيه مع الأنا، ومن هذه الجهة يكون المعصوم، أو المعتصم بالله على محك الاختبار والامتحان بصورة دائمة، ففي كل وقت لابد أن تكون ثمة مغالبة للنفس واعتصام بالله وإخلاص له ليقابل بتوفيق وتسديد منه ﷻ، وبهذا لا يبقى للإشكال عين ولا أثر؛ لأن العصمة ليست معطى يتم اكتسابه في زمن معين وينتهي الأمر، ومن الواضح أن من يريد النقض على العصمة بدعوى أن حجة الله يحظى في زمن ما بعناية لا تتوفر لغيره، لا يتم له نقضه ما لم يكن مبتنياً على افتراض أن العصمة معطى يتم اكتسابه في لحظة ما وينتهي الأمر. تماماً كمن يدرس زمناً ما للحصول على شهادة الماجستير مثلاً، فإذا ما ظفر بها يمكنه أن يترك الدراسة دون أن يكون لذلك تأثير على كونه حاصلاً عليها. ولعل من ينقض ينطلق من فكرة أن العصمة حالة نفسية، أو عضوية كما يعبرون.

* * *

كلمة عن طهارة بول النبي وغائطه :

تروي الكتب السنية قصة شرب أم أيمن بول النبي ﷺ، وهي إن صحت تبدو حادثة غير مقصودة، ففي تلخيص الحبير لابن حجر: (إن أم أيمن شربت بول النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إذاً لا تلج النار بطنك، ولم ينكر عليها الحسن بن سفيان في مسنده والحاكم والدارقطني والطبراني وأبو نعيم من حديث أبي مالك النخعي عن الأسود بن قيس، عن نبيح العزى، عن أم أيمن، قالت: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل إلى فخارة في جانب البيت فبال فيها، فقمت من الليل وأنا عطشانة فشربت ما فيها وأنا لا أشعر، فلما أصبح النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا أم أيمن، قومي فأهريقي ما في تلك الفخارة، قلت قد والله شربت ما فيها، قال: فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ثم قال أما والله لا تبجعن بطنك أبداً. ورواه أبو أحمد العسكري بلفظ: لن تشتكي بطنك. وأبو مالك ضعيف ونبيح لم يلحق أم أيمن وله طريق أخرى رواه عبد الرزاق، عن ابن جريج، أخبرت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبول في قدح من عيدان ثم يوضع تحت سريرة، فجاء فإذا القدح ليس فيه شيء، فقال لامرأة يقال لها بركة كانت تخدم أم حبيبة جاءت معها من أرض الحبشة: أين البول الذي كان في القدح ؟ قالت: شربته، قال: صحة يا أم يوسف. وكانت تكنى أم يوسف فما مرضت قط حتى كان مرضها الذي ماتت فيه. وروى أبو داود عن محمد بن عيسى بن الطباع وتابعه يحي بن معين كلاهما عن حجاج، عن ابن جريج، عن حكيمة، عن أمها أميمة بنت رقيقة أنها قالت: كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم قدح من عيدان تحت سريره يبول فيه بالليل، وهكذا رواه ابن حبان والحاكم ورواه أبو ذر الهروي في مستدركه الذي خرجه على الزامات الدارقطني للشيخين وصححه ابن دحية أنهما قضيتان وقعتا لامرأتين وهو واضح من اختلاف السياق ووضح أن بركة أم يوسف غير بركة أم أيمن مولاته والله أعلم (فائدة) وقع في رواية سلمى امرأة أبي رافع أنها شربت بعض ماء غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لها: حرم الله بدنك على النار. أخرجه الطبراني في الأوسط من حديثها وفي السند ضعف) [1].

١- تلخيص الحبير - ابن حجر: ج١ ص١٨٢ – ١٨٣.

هذه المرويات أصبح لها اليوم صدى مدوٍ بعد الفتوى التي أطلقها مفتي مصر علي جمعة التي قال فيها أن بول النبي طاهر، وأن الصحابة كانوا يتبركون بشربه [١]. وقد أثارت هذه الفتوى موجة من السخط والسخرية.

والحق إن مثل هذه الفتاوى تدخل في دائرة الغلو، والقول بطهارة بول النبي ﷺ إذا كان منطلقه تقديس شخص النبي وكل ما يتعلق به، فالنبي أرفع مكانة مما قد تصله خواطرنا، وليس هو بحاجة لمثل هذه الفتاوى التي لا تسعفها النصوص.

* * *

هل للمعصوم ظل ؟

قد يكون هذا السؤال غريباً، وهو غريب حقاً، ولكن على أية حال طرحه البعض واستشهد ببعض الروايات من قبيل، هذه:

(روي عن النبي ﷺ أنه يرى من خلفه كما يرى من بين يديه، وأنه إذا مشى أثر قدمه الشريف في الحجر ولم يؤثر في الرمل، وأن الخلق بعد الموت تبلى أجسادهم وتصير تراباً وجسده «صلوات الله عليه» لا يبلى ولا يصير رميماً، وأنه إذا وقف في الشمس لا ظل له،

١- قال جمعة في تصريحات صحافية: إن الأساس في فتوى تبرك الصحابة بـ "بول" الرسول هو أن كل جسد النبي، في ظاهره وباطنه طاهر وليس فيه أي شيء يستقزر أو يتأفف أحد منه، فكان عرقه ﷺ أطيب من ريح المسك وكانت أم حِرام تجمع هذا العرق وتوزعه على أهل المدينة، وأضاف جمعة: "فكل شيء في النبي صلى الله عليه وسلم طاهر بما في ذلك فضلاته، وفي حديث سهيل بن عمرو في صلح الحديبية قال: "والله دخلت على كسري وقيصر فلم أجد مثل أصحاب محمد وهم يعظمون محمدا فما تفل تفلة إلا ابتدرها أحدهم ليمسح بها وجهه "وحينما أعطى النبي صلي الله عليه وسلم لعبد الله بن الزبير شيئاً من دمه بعد الحجامة فقال له الرسول صلي الله عليه وسلم ادفنه، فرجع فرأي النبي عليه شيء فقال له: أين دفنته ؟ قال: في قرار مكين، فقال له الرسول صلي الله عليه وسلم "أراك شربته، ويل للناس منك وويل لك من الناس بطنك لا تجرجر في النار واستطرد جمعة قائلا: "فأخذ العلماء من هذا ومنهم الإمام ابن حجر العسقلاني والبيهقي والدارقطني والهيثمي حكماً بأن كل جسد النبي صلى الله عليه وسلم طاهر في ظاهره وباطنه، وعلي ذلك جماهير العلماء كما نص على هذا أيضاً القاضي عياض في "الشفاء" والأمام الغزالي في "الوسيط"، والإمام زكريا الأنصاري في "أسمى المطالب" وابن الرفعة والبلقيني والزركشي. وقال شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني" تكاثرت الأدلة على طهارة فضلاته صلى الله عليه وسلم وعدَّ الأئمة ذلك في خصائصه فلا يلتفت إلى ما وقع مما يخالف ذلك فقد استقر الأمر من أئمتهم على القول بالطهارة.
وأوضح جمعة أن سبب طهارة كل جسد الرسول أنه تهيأ للوحي وللإسراء والمعراج ليس كجسد أحد آخر، فقد غسل الملكان جوفه الشريف عدة مرات، مرة في بني ساعدة وأخرى في الكعبة وكانت تنام عيناه ولا ينام قلبه، وكان صلى الله عليه وسلم يقول :"أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني وأضاف" إن هذه الخصوصية لا تخرج النبي صلى الله عليه وسلم عن حد البشرية وإنما هو اعتقاد من المسلمين يعظم بينهم ولا يجعل شيئا منه على حد الاستقباح وكل الأديان تعتقد مثل هذا وأشد في أوليائها فما بالنا في انبيائها .وأشار إلى أن العقل العلمي هو الذي يتبع الأدلة النقلية والحسية والعقلية وليس الذي يقصر معرفته على الحسي فقط.
http://www.11emam.com/vb/showthread.php?t=9470

وأن الإمام إذا مات لا يبقى في الأرض أكثر من ثلاثة أيام ثم ينتقل إلى الجنة مصاحباً للنبي، وإنما يزار عليه السلام في مكانه الذي تشرف بدنه فيه، وهو عليه السلام يرى زواره ويسمع كلامهم ولا يخفى عليه شيء منهم، هكذا جاء في الأثر عنهم عليهم السلام) [١].

وورد في كتاب مدينة المعاجز: (الحادي والأربعون: أنه لا ظل له، قال أبو جعفر: رأيت الحسن بن علي عليه السلام يمشي في أسواق سر من رأى ولا ظل له) [٢].

لا شك في أن انعدام الظل أمر ليس طبيعياً، بل هو معجز بالتأكيد، فالكلام عنه هو كلام عن المعجز إذن، والمعجز لا يمكن أن يكون بلا هدف، ولا غاية. وما معنى أن يكون خليفة الله دائماً وأبداً بلا ظل، وسواء أكان هناك تحدٍ، أو لم يكن، كان هناك طلب لمعجز، أم لا ؟ أليس هذا من العبث ؟

نعم، يمكن أن يراه شخص في زمن معين بلا ظل، ولكن هذا ليس أمراً طبيعياً، أو دائماً، بل هو معجزة أجراها الله، لتكون حجة أو دليلاً لهذا الرائي، أو من تبلغه.

ويمكننا أن نتصور لو أن الإمام الحسين سلام الله عليه كان بلا ظل، هل كان أهل الكوفة يجرؤون على قتله ؟ ولو كان رسول الله محمد صلى الله عليه وآله لا ظل له هل كان يقاتله أهل مكة ؟

والأمر ذاته يقال بالنسبة لتأثير قدمه في الحجر دون الرمل، وكذلك بالنسبة لوجود سحابة تظل المعصوم في زمن معين، كما في الرواية السابقة، وفي هذه الرواية التي يرويها الشيخ الصدوق (رحمه الله): حدثنا أبي رضي الله عنه قال: حدثنا سعد بن عبد الله، قال: حدثنا محمد بن الحسين بن أبي الخطاب، عن محمد بن سنان، عن المفضل بن عمر، عن جابر بن يزيد الجعفي، عن أبي الزبير المكي، عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله : (**والذي نفسي بيده ما وجهت علياً قط في سرية إلا ونظرت إلى جبرئيل عليه السلام في سبعين ألفاً من الملائكة عن يمينه، وإلى ميكائيل عن يساره في سبعين ألفاً من الملائكة، وإلى ملك الموت أمامه، وإلى سحابة تظله حتى يرزق حسن الظفر**) [٣].

١- المحتضر - حسن بن سليمان الحلي: ص٤٦.
٢- مدينة المعاجز - السيد هاشم البحراني: ج٧ ص٥٧٤ ح٤٤.
٣- الخصال - الشيخ الصدوق: ص٢١٧ – ٢١٨.

وقوله ﷺ: (**والذي نفسي بيده ما وجهت علياً قط في سرية إلا ونظرت ...** الخ) يظهر منه أن هذا يحصل في وقت توجيهه حصراً، والله أعلم.

والحق إن كتب العقائد لم تذكر شيئاً من هذه الأمور على أنها ميزة يُعرف بها المعصوم، ولو كانوا يعتقدونها بالكيفية التي يتصورها بها بعض الحمقى لما وسعهم تركها، بل لما وسعهم أن يقولوا أن العصمة أمر باطن، وأن المعصوم لا يُعرف إلا بنص، وكيف وهذه الأمور ظاهرة للعيان وتشكل علامات يمكن أن يتميز بها المعصوم ؟

* * *

طهارة دم المعصوم:

قد يقول البعض أن دم المعصوم طاهر اعتماداً على الخبر الذي رواه الحر العاملي في الوسائل: (عن البرقي، عن إسماعيل الجعفي، قال: رأيت أبا جعفر عليه السلام يصلي والدم يسيل من ساقه) [١].

وهذا الخبر محمول على جرح لم يبرأ، قال في تهذيب الأحكام: (وَأَمَّا الْخَبَرُ الَّذِي رَوَاهُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عِيسَى، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْبَرْقِيِّ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ الْجُعْفِيِّ، قَالَ: رَأَيْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام يُصَلِّي وَالدَّمُ يَسِيلُ مِنْ سَاقِهِ، فَمَحْمُولٌ عَلَى جُرْحٍ لَازِمٍ أَوْ بَثْرٍ أَوْ قَرْحٍ وَنَحْنُ نُبَيِّنُ فِيمَا بَعْدُ أَنَّ دَمَ الْقُرُوحِ وَالْجِرَاحَاتِ وَمَا لَا يُمْكِنُ أَوْ تَشُقُّ إِزَالَتُهُ فَإِنَّهُ لَا بَأْسَ بِالصَّلَاةِ فِي قَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ وَيَدُلُّ هَاهُنَا عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ) [٢].

وقد ورد في الوسائل: (عن أبي بصير، قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام وهو يصلي، فقال لي قائدي: إن في ثوبه دماً، فلما انصرف قلت له: إن قائدي أخبرني أن بثوبك دماً، فقال لي: **إن بي دماميل ولست أغسل ثوبي حتى تبرأ**) [٣].

وفيه أيضاً: (عن أحمد بن محمد، عن أبيه، ومحمد بن خالد البرقي والعباس جميعاً، عن عبد الله بن المغيرة، عن عبد الله بن مسكان، عن ليث المرادي، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام:

١- وسائل الشيعة (آل البيت) - الحر العاملي: ج٣ ص٤٣٤.
٢- تهذيب الأحكام: ج١ ص٢٥٦.
٣- وسائل الشيعة (آل البيت) - الحر العاملي: ج٣ ص٤٣٣.

الرجل تكون به الدماميل والقروح فجلده وثيابه مملوة دماً وقيحاً، وثيابه بمترلة جلده، فقال: **يصلي في ثيابه ولا يغسلها ولا شيء عليه**) [١].

* * *

مصادر علم المعصوم:

يُشكل البعض قائلاً: كيف إن السيد أحمد الحسن عليه السلام يستشهد في كتبه بأحاديث آبائه عليهم السلام نقلاً عن كتب الحديث ؟

وعلى الرغم من أن هذا الإشكال يفضح إفلاس من يقول به، غير أننا نجيب عليه بأمور منها؛ أن السيد أحمد الحسن عليه السلام يدعو الناس الآن لئن يعرفوا حقيقة كونه مرسلاً من أبيه الإمام المهدي عليه السلام، ويقيم على ذلك الدلائل الكثيرة، وهم منكرون للأسف الشديد، فلا أدري ما كان حالهم لو أنه عليه السلام ذكر الأحاديث المشار إليها في إشكال المستشكل دون أن يشير إلى مصادرها ما عسى الناس يقولون ؟

بل ما عساهم يقولون لو أنه حدثهم بما لم يسمعوه و لم تنقله كتبهم ؟ ولكن لا، الجواب معروف سينكرونه ويقاتلونه، أليس قد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: (**... إن أول قائم يقوم منا أهل البيت يحدثكم بحديث لا تحتملونه، فتخرجون عليه برميلة الدسكرة فتقاتلونه فيقاتلكم فيقتلكم، وهي آخر خارجة تكون**) [٢].

وعلى أي حال، لم يكن السيد أحمد الحسن بدعاً من آبائه عليهم السلام، فقد كان من مصادر علمهم عليهم السلام كتب ورثوها، منها مصحف فاطمة وصحيفة علي عليه السلام، وكتب ورثوها عن الأنبياء، وكل هذا تدل عليه أحاديث كثيرة منها هذه الأحاديث:

حدثنا أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد الجمال، عن أحمد بن عمر، عن أبي بصير، قال: (دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت له: إني أسألك جعلت فداك عن مسألة ليس هيهنا أحد يسمع كلامي، فرفع أبو عبد الله عليه السلام ستراً بيني وبين بيت آخر فاطلع فيه ثم قال: **يا أبا**

١- وسائل الشيعة (آل البيت) - الحر العاملي: ج٣ ص٤٣٤.
٢- بحار الأنوار: ج٥٢ ص٣٧٥.

محمد، سل عما بدا لك. قال: قلت: جعلت فداك، إن الشيعة يتحدثون أن رسول الله ﷺ علّم علياً عليه السلام باباً يفتح منه ألف باب، قال: فقال أبو عبد الله عليه السلام: **يا أبا محمد، علّم والله رسول الله علياً ألف باب يفتح له من كل باب ألف باب.** قال: قلت له: والله هذا لعلم، فنكت ساعة في الأرض ثم قال: **إنه لعلم وما هو بذلك،** ثم قال: **يا أبا محمد، وإن عندنا الجامعة وما يدريهم ما الجامعة،** قال: قلت: جعلت فداك، وما الجامعة ؟ قال: **صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله ﷺ وإملاء من فلق فيه وخط علي بيمينه، فيها كل حلال وحرام وكل شيء يحتاج الناس إليه حتى الأرش في الخدش،** وضرب بيده إلى فقال: **تأذن لي يا أبا محمد ؟** قال: قلت: جعلت فداك، إنما أنا لك اصنع ما شئت، قال: فغمزني بيده فقال: **حتى أرش هذا كأنه مغضب.** قال: قلت: جعلت فداك، هذا والله العلم، قال: **إنه لعلم وليس بذلك،** ثم سكت ساعة، قال: **إن عندنا الجفر وما يدريهم ما الجفر، مسك شاة أو جلد بعير.** قال: قلت: جعلت فداك، ما الجفر ؟ قال: **وعاء أحمر أو ادم أحمر فيه علم النبيين والوصيين.** قلت: هذا والله هو العلم، قال: **إنه لعلم وما هو بذلك،** ثم سكت ساعة ثم قال: **وإن عندنا لمصحف فاطمة وما يدريهم ما مصحف فاطمة،** قال: **مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلث مرات والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد إنما هو شيء أملاها الله وأوحى إليها.** قال: قلت: هذا والله هو العلم، قال: **إنه لعلم وليس بذاك،** قال: ثم سكت ساعة ثم قال: **إن عندنا لعلم ما كان وما هو كائن إلى أن تقوم الساعة.** قال: قلت: جعلت فداك، هذا والله هو العلم، قال: **إنه لعلم وما هو بذاك.** قال: قلت: جعلت فداك، فأي شيء هو العلم ؟ قال: **ما يحدث بالليل والنهار الأمر بعد الأمر والشيء بعد الشيء إلى يوم القيمة)** [1].

حدثنا أحمد بن محمد ومحمد بن الحسين، عن الحسن بن محبوب، عن علي بن رئاب، عن أبي عبيدة، قال: (سأل أبا عبد الله عليه السلام بعض أصحابنا عن الجفر فقال: **هو جلد ثور مملو علماً.** فقال له: ما الجامعة ؟ فقال: **تلك صحيفة طولها سبعون ذراعاً في عرض الأديم مثل فخذ الفالج فيها كلما يحتاج الناس إليه وليس من قضية إلا وفيها أرش الخدش.** قال له: فمصحف فاطمة ؟ فسكت طويلاً ثم قال: **إنكم لتبحثون عما تريدون وعما لا تريدون، إن**

١- بصائر الدرجات - محمد بن الحسن الصفار: ص١٧١ – ١٧٢.

فاطمة مكثت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله خمسة وسبعين يوماً، وقد كان دخلها حزن شديد على أبيها وكان جبرئيل يأتيها فيحسن عزاها على أبيها ويطيب نفسها ويخبرها عن أبيها ومكانه ويخبرها بما يكون بعدها في ذريتها وكان علي يكتب ذلك، فهذا مصحف فاطمة)[١].

حدثنا أحمد بن محمد، عن عمر بن عبد العزيز، عن حماد بن عثمان، قال: (سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: **تظهر الزنادقة في سنة ثمانية وعشرين ومائة وذلك لأني نظرت في مصحف فاطمة.** قال: فقلت: وما مصحف فاطمة ؟ فقال: **إن الله تبارك وتعالى لما قبض نبيه صلى الله عليه وآله دخل على فاطمة من وفاته من الحزن ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، فأرسل إليها ملكاً يسلي عنها غمها ويحدثنا فشكت ذلك إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال لها إذا أحسست بذلك فسمعت الصوت فقولي لي، فأعلمته فجعل يكتب كلما سمع حتى أثبت من ذلك مصحفاً.** قال: ثم قال: **أما أنه ليس فيه من الحلال والحرام ولكن فيه علم ما يكون)** [٢].

عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن علي بن الحكم، عن الحسين ابن أبي العلاء، قال: (سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: **إن عندي الجفر الأبيض،** قال: قلت: فأي شيء فيه ؟ قال: **زبور داود، وتوراة موسى، وإنجيل عيسى، وصحف إبراهيم عليهم السلام والحلال والحرام، ومصحف فاطمة، ما أزعم أن فيه قرآناً، وفيه ما يحتاج الناس إلينا ولا نحتاج إلى أحد حتى فيه الجلدة، ونصف الجلدة، وربع الجلدة وأرش الخدش. وعندي الجفر الأحمر.** قال: قلت: وأي شيء في الجفر الأحمر ؟ قال: **السلاح، وذلك إنما يفتح للدم يفتحه صاحب السيف للقتل،** فقال له عبد الله ابن أبي يعفور: أصلحك الله أيعرف هذا بنو الحسن ؟ فقال: **إي والله كما يعرفون الليل أنه ليل والنهار أنه نهار ولكنهم يحملهم الحسد وطلب الدنيا على الجحود والإنكار، ولو طلبوا الحق بالحق لكان خيراً لهم)** [٣].

* * *

١- بصائر الدرجات - محمد بن الحسن الصفار: ص١٧٣ – ١٧٤.
٢- بصائر الدرجات - محمد بن الحسن الصفار: ص١٧٧.
٣- الكافي - الشيخ الكليني: ج١ ص٢٤٠.

هل لابد للمعصوم من الالتزام بقواعد النحو العربي المتعارفة ؟

شبهة يرددها الكثيرون هذه الأيام، وبعضهم ممن يُحسب على أهل العلم، مفادها أن المعصوم لا يخالف قواعد النحو، وللرد على هذه الشبهة سنخصص العناوين التالية:

أولاً/ الروايات تكذب هذا الزعم:

وردت في كتاب مستدرك الوسائل للميرزا النوري روايات تنقض ما يزعمه القائلون بالشبهة، وضعها تحت عنوان: (باب وجوب تعلم إعراب القرآن، وجواز القراءة باللحن مع عدم الإمكان)[1]، إليكم بعض هذه الروايات:

عن محمد بن مسلم، قال: (قرأ أبو عبد الله عليه السلام الآية الكريمة ﴿**وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ**﴾: نوحاً، قلت: نوح! ثم قلت: جعلت فداك لو نظرت في هذا أعني العربية، فقال: **دعني من سهككم**).

الإمام الصادق عليه السلام يقرأ هنا (نوح) بالفتح وهو فاعل حقه الرفع، وحين يقول له محدثه: لو نظرت في العربية يجيبه بقوله: (دعني من سهككم). والسهك ريح كريهة يجدها الإنسان فيمن يتعرق وهو أيضاً صدأ الحديد ورائحة السمك الزنخة [2].

وفيه: عن حويزة بن أسماء، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: (إنك رجل لك فضل، لو نظرت في هذه العربية، فقال: **لا حاجة لي في سهككم هذا**).

وإذا كان الإمام الصادق عليه السلام قد قرأ (نوح) بالفتح في الرواية الأولى فهو في هذه الرواية لم يقرأ شيئاً من القرآن، كما يظهر، ومع ذلك يقول له أسماء بن حويزة: (لو نظرت في العربية) الأمر الذي يستظهر منه أنه عليه السلام كان في كل أو كثير من أحواله لا يعير أهمية لعلم النحو.

وفيه عن الصادق عليه السلام أنه قال: (**من انهمك في طلب النحو سلب الخشوع**).

١- مستدرك الوسائل - الميرزا النوري: ج٤ ص٢٧٨ – ٢٨٠.
٢- انظر على سبيل المثال: صحاح الجوهري مادة (سهك).

وكذلك قال عليه السلام: (**أصحاب العربية يحرفون الكلم عن مواضعه**).

أظن هذه الروايات كافية ليعرف الجميع أن النحو لا يصلح ميزاناً يوزن به كلام المعصوم، فإن وافقه يكون معصوماً، وإن خالفه لا يكون. بل إن من الممكن استيحاء دلالة منها على أن النحو ليس بعلم على الحقيقة، بحيث لا تسع أحداً مخالفته. وسيأتي لاحقاً حديث بهذا الشأن.

ثانياً/ آيات قرآنية كثيرة تخالف النحو:

أكثر الآيات التي سأستشهد بها موجودة في الكثير من المواقع المسيحية على شبكة الانترنيت، وهم يستدلون بها كما يزعمون على أن القرآن يخالف النحو العربي، وبالتالي يزعمون أنه ليس من عند الله سبحانه وتعالى. وهذا بطبيعة الحال جهل منهم، وقلة حيلة بالتأكيد، فهم يحاولون أن يردوا على الهجمات التي تتعرض لها كتبهم عبر الهجوم على القرآن بهذا الأسلوب المتهالك. ولكن طبعاً علينا أن نعتبر من فعلتهم، فالحق إن من يطبلون للنحو العربي، ويصورونه وكأنه قانون إلهي لا تنبغي مخالفته، هؤلاء هم من وضع بيد المسيحيين هذا السلاح المفلول. أما الآيات فإليكم بعضها:

١ ﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ**﴾[١].

وبحسب قواعد النحو كان يجب أن يجعل الضمير العائد على المفرد مفرداً فيقول: ذهب الله بنوره.

٢ ﴿**لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً**﴾. وكان يجب بحسب قواعد النحو أن يجمعها جمع قلة حيث إنهم أرادوا القلة، فيقول: أياماً معدودات.

٣ ﴿**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾[٢]. والظالمون فاعل ولكن الآية لم ترفعه.

١- البقرة: ١٧.
٢- البقرة: ١٢٤.

٤ ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[١]. وبحسب النحو كان ينبغي أن يقول: ولكن البر أن تؤمنوا، وكذلك: أن تؤتوا، وأن تقيموا الصلاة، وأيضاً: الصابرون باعتبار عطفها على الموفون.

٥ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢]. والصيام ثلاثون يوماً فكان يجب بحسب النحو أن تجمع جمع كثرة، فيقول: أياماً معدودة.

٦ ﴿وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٣]. والصواب بحسب النحو أن يقول: تلك عشر كاملة.

٧ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[٤]. والصواب لغوياً أن يقول: كن فكان.

١- البقرة: ١٧٧.
٢- البقرة: ١٨٣ – ١٨٤.
٣- البقرة: ١٩٦.
٤- آل عمران: ٥٩.

﴿لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً﴾[١]. والصواب نحوياً أن يقول: والمقيمون الصلاة.

٨ ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢]. والصواب نحوياً: يديهما.

٩ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٣]. والصواب نحوياً: الصابئين كما ورد في آيتين أخريين هما:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٤].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٥].

١٠ ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٦]. وقوله: قريب خبر (إن) فالصواب نحوياً أن يتبع اسمها (رحمة) في التأنيث، فيكون: قريبة.

١١ ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾[٧]. هنا (قريب) خبر (لعل) فكان الصواب نحوياً أن يتبع اسمها بالتأنيث فيقول: قريبة.

١٢ ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا

١- النساء: ١٦٢.
٢- المائدة: ٣٨.
٣- المائدة: ٦٩.
٤- البقرة: ٦٢.
٥- الحج: ١٧.
٦- الأعراف: ٥٦.
٧- الشورى: ١٧.

عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[١]. والصواب: اثني عشر سبطاً.

١٣ ﴿يَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[٢]. والصواب: يرضوهما.

١٤ ﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾[٣]. والصواب: هذين.

١٥ ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[٤]. والصواب: أسر، إلا إذا قيل أنها على لغة أكلوني البراغيث، وهي شاذة.

١٦ ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾[٥]. والصواب: اختصما.

١٧ ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٦]. والصواب: اقتتلتا.

١٨ ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[٧]. والصواب: وأكون.

١٩ ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً﴾[٨]. والصواب: سلاسلَ؛ لأنها ممنوعة من الصرف فلا تنون.

١- الأعراف: ١٦٠.
٢- التوبة: ٦٢.
٣- طه: ٦٣.
٤- الأنبياء: ٣.
٥- الحج: ١٩.
٦- الحجرات: ٩.
٧- المنافقون: ١٠.
٨- الإنسان: ٤.

٢٠ ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾[١]. والصواب نحوياً: اختصما.

٢١ ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾. والصواب نحوياً: اقتتلتا.

٢٢ ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢]. والصواب نحوياً: ذا عُسرة.

وتوجد مواضع أخرى تركتها اكتفاء بما ذكرت. بطبيعة الحال هم لديهم تخريجات وتأويلات يلتفون من خلالها على قواعد النحو، فيفترضون محذوفات ومقدرات، ويسحبون الدلالة لهذا المعنى، أو ذاك، وعلى العموم يوجد في جرابهم الكثير من الحيل[٣].

ولكن أليسوا يقولون إن النحو هو الميزان الذي يُوزن به الكلام، وما خالفه يُحكم عليه بأنه خطأٌ، فما بالهم ينحرفون هنا عن طريقتهم، ويتجهون نحو الميزان يرتقون فتوقه، ويسدون ثقوبه، وما أكثرها !؟

هل يقولون بأن القرآن هو الميزان الذي يُوزن به النحو، إذن فالقرآن يُنبئهم بأن نحوهم قاصر وغير محيط بكل الظواهر اللغوية والنحوية، وهو بالتالي أداة قاصرة لا يمكن الاحتكام إليها في تقييم كلام المعصوم، بل ولا غيره.

الترقيعات بطبيعة الحال لا تدل على حالة إيجابية كما قد يتصور البعض لأنك إذا ما عرض عليك ما يخالف قاعدة النحوي، ولجأت إلى التمحلات واللف والدوران، تكون قد أسقطت النحو من شاهق وعلى أرنبة أنفه المتعالي. فإذا ما انفتح الباب مرة تستطيع أن تمارس نفس اللعبة في كل مرة، ومع كل كلام، فيفقد النحو بالنتيجة كل قيمة يمكن أن يفترضها له أربابه.

١- الحج: ١٩.
٢- البقرة: ٢٨٠.
٣- إليكم هذا المثال من تفسير جوامع الجامع - الشيخ الطبرسي: ج٢ ص٤٨٩: ("**إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ**" وهي لغة بلحرث ابن كعب، جعلوا الاسم المثنى نحو الأسماء التي آخرها ألف كعصا وسلمى ولم يقلبوها ياء في الجر والنصب، وقيل: "إن" هنا بمعنى: نعم و "ساحران" خبر مبتدأ محذوف تقديره: لهما ساحران).

إذ ما قيمة هذا العلم المزعوم الذي يمكن لمدمنيه أن يجدوا الإطار النحوي المناسب لأكثر الصور قبحاً في عرف قواعدهم نفسها ؟ وهل يُلام الفرزدق حينما قال لعبد الله بن أبي إسحاق: (علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا) [١] ؟

* * *

اللغة وسيلة اتصال:

اللغة كما يعرفها علم اللغة الحديث، وكما هي حقيقتها وسيلة لتوصيل مضمون، أو معنى، أو رسالة من مُرسِل (باث) إلى مُرسَل إليه، أو متلقي، فهي شأنها شأن أي قناة، أو وسيلة إيصال، يتحدد النجاح والفشل في استعمالها بقدرة المرسل على توصيل رسالته للمتلقي أو عدمها.

والمعصوم شأنه شأن غيره من البشر يكتسب لغته ويتعلم قوانينها وافتراضاتها من الوسط الذي يعيش فيه، فإذا كان عربياً اكتسب لغة العرب الذين يعيش بينهم، وإذا كانت ألسنة هؤلاء تجري في مسار لهجة من اللهجات، فلسانه يجري مجرى ألسنتهم.

وفي حالة كالتي تعيشها الثقافة العربية هناك لهجات مختلفة وهناك ما يسمونه لغة جامعة، أو مشتركة، أو فصيحة، سمّها ما شئت، وكانت هذه هي الحال منذ ما قبل الإسلام إلى يوم الناس هذا. وهنا قد ينقدح سؤال في بعض الأذهان هو: (أليس من الأفضل أو حتى من الواجب، كما قد يحلو للبعض أن ينطق المعصوم بلسان اللغة المشتركة أو الفصحى) ؟

وللجواب عن هذا السؤال لابد أن نستحضر مهمة المعصوم، وقد علمنا مما تقدم أن المعصوم هو المعتصم بالله عن محارم الله، وإن وظيفته أن يهدي الناس، فلا يُدخلهم في باطل ولا يُخرجهم من حق. وفيما يتعلق بجواب السؤال، فإن من الواضح أن أقصى ما يمكن أن يُقال هنا هو أن المعصوم والمراد حجة الله تحديداً يكفيه أن يستخدم اللغة بطريقة ناجحة تكفي لإيصال المضامين التي يريد إيصالها، ولا يقدح في عصمته ولا في حجيته إن هو كلم

١- خزانة الأدب – البغدادي: ط١|١٩٩٨م| بيروت - دار الكتب العلمية: ج٥ ص١٤٣ – ١٤٤.
والحادثة متعلقة بقول الفرزدق: وعض زمان يابن مروان لم يدع * * * من المال إلا مسحتاً أو مجرف. فقد قال له عبد الله: علام رفعت (مجرف)؟ فأجابه: بما يسوءك وينوءك علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا.

الناس باللهجة وبالمستوى الذي يفهمون. وبكلمة أخرى: يكفيه أن يبين ما يريد توصيله للناس. بل بالأحرى حتى مسألة البيان ليست مما يُشترط بحجة الله. فهذا موسى عليه السلام لم يكن يبين ومع ذلك فهو حجة من حجج الله تعالى على خلقه لا يسعهم إلا الإيمان به وإطاعته.

قال تعالى على لسان فرعون وهو يصف موسى عليه السلام : ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[١].

وقال تعالى على لسان موسى عليه السلام : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۞ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾[٢].

ومثله قوله تعالى: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۞ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾[٤].

ورد في تفسير القمي: (حدثني أبي، عن الحسن بن محبوب، عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي الربيع، قال: حججت مع أبي جعفر في السنة التي حج فيها هشام بن عبد الملك وكان معه نافع بن الأزرق مولى عمر بن الخطاب، فنظر نافع إلى أبي جعفر عليه السلام في ركن البيت وقد اجتمع عليه الناس فقال لهشام: يا أمير المؤمنين، من هذا الذي تتكافأ عليه الناس ؟ فقال: هذا نبي أهل الكوفة، هذا محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام. فقال نافع: لآتينه فلأسألنه عن مسائل لا يجيبني فيها إلا نبي أو وصي نبي أو ابن وصي نبي، فقال هشام: فاذهب إليه فسله فلعلك أن تخجله، فجاء نافع واتكأ على الناس ثم أشرف على أبي جعفر عليه السلام فقال: يا محمد بن علي، إني قد قرأت التوراة والإنجيل والزبور والفرقان وقد عرفت حلالها وحرامها وقد جئت أسألك مسائل لا يجيبني فيها إلا نبي أو وصي نبي أو ابن وصي نبي، فرفع إليه أبو جعفر عليه السلام رأسه فقال: **سل.** فقال: أخبرني كم بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وآله من سنة ؟ فقال: **أخبرك بقولي أو بقولك ؟** قال: أخبرني بالقولين جميعاً. فقال: **أما بقولي فخمسمائة سنة،**

١- الزخرف: ٥٢.
٢- الشعراء: ١٢ – ١٣.
٣- طه: ٢٧ – ٢٨.
٤- القصص: ٣٤.

وأما بقولك فستمائة سنة. قال: فأخبرني عن قول الله ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ من ذا الذي سأل محمد وكان بينه وبين عيسى خمسمائة سنة ! قال: فتلا أبو جعفر عليه السلام هذه الآية: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾[1] **فكان من الآيات التي أراها الله محمداً صلى الله عليه وآله حين أسرى به إلى بيت المقدس أن حشر الله الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين** ... (إلى أن قال) قال نافع: صدقت يا بن رسول الله يا أبا جعفر أنتم والله أوصياء رسول الله وخلفاؤه في التوراة وأسماؤكم في الإنجيل وفي الزبور وفي القرآن، وأنتم أحق بالأمر من غيركم. ثم حكى قول فرعون وأصحابه لموسى عليه السلام فقال: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ أي يا أيها العالم، ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ ثم قال فرعون: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ يعني موسى، ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ فقال: لم يبين الكلام ... الخ)[2].

فموسى عليه السلام لم يكن يُبين الكلام.

إذن، يكفي المعصوم تماماً أن يُوصل الرسالة التي يحملها، ويبينها للناس، ولا يلزمه على الإطلاق أن يراعي ما تواضع عليه الناس من تسمية بعض الكلام بأنه الأرقى والأفصح وما إلى ذلك.

قد يُقال: إن عدم مراعاة قواعد النحو تُوقع في اللبس أحياناً، فيستدعي الأمر مراعاة هذه القواعد.

أقول: لا يمكن لأحد أن يزعم أن جميع الناطقين بالعربية يعرفون قواعدها النحوية ويراعونها كل المراعاة في حديثهم ومع ذلك لا أحد يقول إنهم يخفقون في استعمال اللغة وتوظيفها لتأدية أغراضهم. نعم، هم قد يقولون: (ذهب الولدَ إلى المدرسةُ) ويُسجله الرقيب النحوي عليهم مخالفة نحوية، ولكن المعنى يصل على أية حال.

١- الإسراء: ١.
٢- تفسير القمي - علي بن إبراهيم القمي: ج٢ ص٢٨٤ – ٢٨٥.

وعلينا أن نلاحظ أن الجميع تقريباً يتكلم الآن ما يمكن أن نصطلح عليه باللغة العامة (وليس العامية)، وهي لغة تتحرى المفهوم من الكلمات، وتستعير كثيراً من الكلمات الفصيحة، ولا تراعي الحركات الإعرابية، بل تميل للتسكين، وهي لغة مفهومة من جميع الناطقين بالعربية، ويستخدمها عادة المثقفون في أحاديثهم. وعلى هذا لا يصح القول بضرورة مراعاة الحركات الإعرابية، وحتى لو ذهبنا معهم إلى آخر الشوط، فإننا نقول: إشكالكم لا يتطلب أكثر من مراعاة الحركات الإعرابية في مواطن اللبس، أما المراعاة التامة الكاملة فلا تعدو عن كونها مطلباً ترفياً، لا يقول بضرورته بالنسبة للمعصوم إلا من تنقصه الحصافة ويفتقر للدليل.

* * *

ولكن ماذا عن مخالفة قواعد النحو:

هنا مسألة قد يراها البعض مختلفة عما سبق، فمخالفة القواعد يتصوره البعض خطأ، والخطأ برأيهم لا يجوز بحق المعصوم.

وعلى الرغم من أننا ناقشنا مسألة الخطأ فيما سبق، غير أننا سنقول كلاماً آخر هنا، فما يسمونه خطأ لا نسميه كذلك، بل نراه مخالفة للنحو، والفرق بين التعبيرين هو أن قولنا (خطأ) يستبطن معنى إننا نرى قواعد النحو المعروفة قوانين صحيحة لابد من التزامها، ولا ينبغي بحال مخالفتها، بينما قولنا (مخالفة) يعني أننا ننظر لقواعد النحو على أنها لا تكتسب قوة القانون الذي لا يجب مخالفته، وإن قلنا فيما بعد بأن لها نفعاً من نوع ما.

إذن، من يتحدث عن مخالفة قواعد النحو عليه أن يكون مطلعاً على حقيقة هذه القواعد النحوية، وهل هي قوانين نابعة من نفس الظاهرة اللغوية، بمعنى إنها تشكل جزءاً من ماهيتها، أم إنها نظام تنظيمي خارجي تم تشكيل اللغة طبقاً له بلحاظات ما ؟

وبكلمة أخرى: هل قواعد النحو منبثقة عن نفس اللغة، أم إن العقل البشري عقول النحاة هو من أنتجها، وافترض أنها تعبر عن حقيقة اللغة ؟

ولنستشهد بكلمة قالها الخليل بن أحمد الفراهيدي فقد سُئل ذات مرة: أعن العرب أخذت هذه العلل، أم اخترعتها من نفسك ؟ فأجاب: (إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علله، وإن لم يُنقل ذلك عنها. وعللت بما عندي أنه علة لما عللته منه. فإن أكن أصبت العلة فهو الذي التمست، وإن يكن هناك علة غير ما ذكرت، فالذي ذكرته محتمل أنه علة ... فإن سنح لغيري علة لما عللته من النحو هي أليق مما ذكرت بالمعلول فليأتي بها) [1].

الخليل في هذا النص يفترض أن كلام العرب تنتظمه قواعد، أو علل، ولكن هذه القواعد المفترضة غير منصوص عليها في كلامهم، فكان أن عمد إلى اختراع، أو استنباط ما يحتمل أن يكون هو القاعدة، أو العلة. والخليل كما يشهد ذيل كلامه لا يقطع بعدم إمكانية أن يكون ما صنعه من قواعد ليس هو القاعدة أو العلة الحقيقية، بل يُبقي الباب مفتوحاً أمام المحاولات الأخرى التي يمكن أن تكون أفضل وأقرب من محاولته.

ويمكن هنا أن نلمح حقيقة الجهد النحوي لتنظيم كلام العرب على وفق قواعد معينة، فالنحويون نظروا لكلام العرب على أنه ظاهرة تخضع بدورها شأن كل الظواهر الأخرى لعلل وأسباب أكسبته صورته النسقية المحددة، فعملوا على استخراج ما يحسبونه هذه العلل، أو الأسباب، أو القواعد. ومن الواضح أن اجتهادهم خاضع لمعيار الخطأ والصواب، كما أن من الممكن تماماً أن يقول غيرهم غير ما قالوه، وأن يأتي بمنظومة قواعدية تبتعد كثيراً، أو قليلاً عن تلك التي شادوا هيكلها.

* * *

منهج النحويين:

وإذا شئنا أن نتحدث عن المنهج الذي اختطه علماء النحو، وسارت عليه أجيالهم، فإن عين الملاحظة لن تخطئ تلك الانحرافات الواضحة عن المنهج العلمي التي وقعوا فيها، ومن هذه الانحرافات التي يمكن أن نشير إليها في العجالة ما يلي:

١- الإيضاح في علل النحو للزجاجي: ص٦٥. نقلا عن: الأصول - الدكتور تمام حسان عالم الكتب – القاهرة ٢٠٠٠م: ص١٦١ – ١٦٢.

١ صفة المعيارية:

يُفترض بمن يريد استنباط القوانين التي تتحكم بظاهرة معينة، أن يدرس هذه الظاهرة دراسة وصفية، موضوعية، فيعمد إلى مراقبتها بحيادية ودونما تدخل منه بالتفضيل، والتقييم، وما إلى ذلك من تدخلات يفرضها عقله، أو ذوقه على المادة المدروسة.

ولكن مراقبة منهج النحاة يكشف عن تدخلات واسعة من قبيل تصنيف اللغة إلى لغة فصيحة وأخرى غير فصيحة، بل إنهم كثيراً ما يصفون تعبيراً، أو تركيباً بأنه صحيح، ولكنهم يصفون غيره بأنه أفصح، فيلتزمون بالثاني دون الأول.

ثم إن النحاة واللغويين هم من حدد مفهوم الفصاحة، كما يقول الدكتور تمام حسان [١]، وحددوا لها زمناً معيناً توقفت بانتهائه، وقبائل معينة كانت حكراً عليها !

يقول الدكتور تمام حسان: (إن لفظ "الفصحى" يومئ إلى مقارنة بين اللغة الأدبية وبين صور لغوية أخرى أقل منها فصاحة؛ لأن الفصحى مؤنث "الأفصح"، وهو أفعل تفضيل يقتضي مفضلاً عليه. ولا ينبغي أن يقال إن المفضل عليه هو لغات القبائل التي رفض النحاة الأخذ عنها؛ لأن الوصف المناسب لهذه اللغات ليس "الفصيح" وإنما تسمى "غير الفصيح")[٢].

٢ صفة الاستقراء الناقص:

يعرّف النحاة علم النحو بأنه: (علم بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب) [٣]. ويقول ابن السراج: (وهو علم استخرجه المتقدمون فيه من استقراء كلام العرب) [٤]. ويقول أبو إسحاق الشاطبي: (الذين اعتنوا بالقياس والنظر فيما يعد من صلب كلام العرب، وما لا

١- الأصول مصدر سابق: ص٩٧.
٢- الأصول: ص٩٨.
٣- السكاكي في القسم النحوي من المفتاح: ص٤١، نقلا عن رأي في أصول النحو وصلته بأصول الفقه - الدكتور السيد مصطفى جمال الدين - مجلة تراثنا - مؤسسة آل البيت: ج١٥ ص٩٨ – ١٠٤.
٤- الأصول - لابن السراج: ج١ ص٣٧، نقلا عن رأي في أصول النحو.

يعد، لم يثبتوا شيئاً إلا بعد الاستقراء التام، ولا نفوه إلا بعد الاستقراء التام) [١]. وقال بعض المحدثين: (لست أعقل النحو إلا استقراء ثم قياساً) [٢].

ولكن المتتبع يسجل على صنيع النحويين أنهم لم يستقرئوا من كلام العرب إلا جزءاً يسيراً لا يكاد يُذكر إذا ما قيس بما نطقت به العرب، بل هو كذلك حتى لو قيس بكلام فصحائهم. والاستقراء الناقص للغة العرب من شأنه كما لا يخفى أن يُضعف كثيراً من النتائج التي سطرها النحاة. فأقل ما يُقال في هذه النتائج أنها لا تصلح لوصف ما لم يُستقرأ من اللغة. بل هي بالأحرى لا تصلح لئن يوثق بها، أو يُنظر إليها على أنها القوانين التي تنتظم كلام العرب، أو التي ينبغي أن يلتزمها من يريد النطق كما تنطق العرب. إذ من الممكن أن يكون في غير المستقرأ من اللغة ما يخالف القواعد التي استنبطت من جزئها المستقرأ، أو لعل ثمة ظواهر أخرى بقيت مجهولة، و لم توضع لها القواعد المناسبة. بل ما الذي يجعلهم مطمئنين لعدم وجود ظواهر في غير المستقرأ تنقض هيكل القواعد الذي أشادوه؛ كله أو بعضه ؟

ومما يدل على الاستقراء الناقص إن (الذين أُخذ عنهم اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد وهذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، و لم يؤخذ عن غير هؤلاء من سائر قبائل العرب، وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم، فلم يؤخذ من لخم ولا من جذام؛ لأنهم كانوا مجاورين لأهل الشام وأكثرهم نصارى يقرأون في صلاتهم بغير العربية، ولا من تغلب والنمر؛ لأنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر؛ لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس، ولا من عبد القيس؛ لأنهم كانوا سكان البحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ولولادة الحبشة فيهم، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وسكان الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم، ولا من أهل حواضر الحجاز كالمدينة ومكة؛ لأن الرواة الذين نقلوا لغة العرب صادفوهم حين ابتدأوا ينقلونها قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم) [٣].

١- دراسات في العربية وتاريخها: ص٧١، نقلاً عن رأي في أصول النحو.
٢- الأستاذ سعيد الأفغاني في كتابه (في أصول النحو): ص٧٨، نقلاً عن رأي في أصول النحو.
٣- الوسيط في تاريخ النحو العربي - الدكتور عبد الكريم محمد الأسعد. دار الشواف – الرياض ط١ ١٩٩٢: ص٢١.

وقد حدد أبو عمرو ابن العلاء القبائل الفصيحة، بقوله: (أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم) [١].

وعلى المستوى الزمني توقفوا في الاستشهاد عند منتصف القرن الثاني، فختموا من يُستشهد بشعرهم بالشاعر إبراهيم ابن هرمة المتوفى عام (١٥٠ هـ .) أو ما يقرب منه. علماً أن الشعر كان المادة الأساس التي اعتمدوا عليها، كما سيتضح.

وقد سبق أن أشرنا إلى أنهم كانوا معياريين ينتقون من الكلام ما يرون فيه سمة الفصاحة، اعتماداً على مقاييسهم، الأمر الذي يعني أنهم حتى على مستوى الجزء المستقرأ من اللغة كانوا يهملون بعض الظواهر اللغوية والنحوية.

يقول الدكتور تمام حسان مدافعاً عن الاستقراء الناقص: (ولقد كان سماعهم عن العرب يجري بحسب منهج محدد ذي اختيارات تاريخية واجتماعية وجغرافية معينة، فكان لهم انتقاء في الزمان (من امرئ القيس إلى ابن هرمة) وانتقاء في المكان (وسط شبه الجزيرة) وانتقاء من قبائل الوسط (قيس وتميم وأسد وطيئ وهذيل وبمن تبدى من هذه القبائل دون من تحضر) ولقد أجروا استقراء على ما وصل إلى أيديهم من النصوص مستغنين به عن غيره مما لم يصل إليهم، فكان ذلك منهم استقراء ناقصاً وهو مطلب العلم المضبوط أو الصناعة) [٢].

ولكي نفهم دفاع الدكتور تمام حسان ينبغي أن يعرف القارئ أن الدكتور تمام يرى أن من أهم خصائص العلم المضبوط هو أن يكون موضوعياً، فلا يسمح الباحث لعواطفه وآرائه ومعتقداته الشخصية بالتدخل في توجيه الظاهرة المدروسة. والموضوعية كما يرى تقوم على دعامتين أولاهما الاستقراء الناقص [٣].

وبطبيعة الحال لا غبار على كلام الدكتور، باستثناء فكرته عن الاستقراء الناقص الذي جعله الدعامة الأولى للموضوعية، فلنتابع معه لنتفهم منطقه بصورة أجلى.

١- الأصول - تمام حسان: ص٨٩.
٢- الأصول: ص٥٧.
٣- انظر: الأصول: ص١٦.

يرى الدكتور أن الاستقراء التام لما لا يقع تحت الحصر متعذر، وهو يقصد هنا أن إحصاء كل ما قالته العرب أمر غير ممكن، وهو محق تماماً بقوله هذا، ويرى أن لا نقف عاجزين، فنكتفي بالاستقراء الناقص، ونجبر نقصه من خلال اعتماد مبدأ الحتمية. ويقصد بهذا المبدأ أن نعتقد بأن ما صدق من حكم على المفردات التي خضعت للاستقراء صادق حتماً على ما لم يخضع منها للاستقراء، فيكون ما غاب من المفردات بمترلة ما حضر منها [١].

واضح أن أول ما ينطبع في أذهاننا عند قراءة كلام الدكتور أنه يريدنا أن نؤمن بمبدأ الحتمية الذي صاغه على أنه مصادرة لا يجوز لنا التساؤل عن ما يسوغها.

والدكتور في الحقيقة يعي جيداً ما يقول فليس هو جاهلاً، ولا متعنتاً كما قد يُظن، بل ربما كان في كلامه ما هو وجيه للغاية. فالدكتور يرى النحو ويريده على أنه صناعة. وقد وضع في كتابه مقدمة بعنوان (الصناعات والمعارف)، يرى فيها أن المعرفة تختلف عن الصناعة؛ فالصناعة كما يقول تُبنى على قواعد، وتحتاج إلى التمرن، بينما المعرفة علم يكفيه فيه التحصيل دون حاجة إلى التمرن [٢]. ويضرب لذلك مثلاً توضيحياً، بأبيات قصيدة، إذا قطعناها كما يفعل العروضيون لنعرف البحر الشعري الذي ينتظم أبياتها، يكون عملنا هذا صناعة؛ لأن علم العروض مبني على قواعد لابد من التمرن على تطبيقها، بينما معرفة معناها لا يقتضي منا غير معرفة بالمعجم وتذكر، فلا تمرن هنا.

ولكن ما معنى أن يكون النحو صناعة لا معرفة ؟ معناه أن الدكتور تمام حسان يريد من النحو أن يكون آلة لضبط الكلام على أصول وقواعد معينة، فإذا ما اتبعها المتكلم يوافق كلامه طريقة العرب بالكلام. فيكون النحو بهذه الحالة شبيهاً بالمنطق الصوري الذي يعرفونه بوصفه آلة تعصم الفكر من الزلل عند مراعاتها.

وعلينا أن نلاحظ أن صيرورة النحو صناعة يُدخله حيز التوظيف، فيكون وسيلة (آلة) لهدف، أو غاية تتمثل بصون اللغة وعدم السماح بالفوضى، ويصبح الهدف، أو الغاية هو الهاجس الذي يوجه حركة النحو (الآلة)، وهو من له الأولوية. وبالنتيجة لا ضرورة تحتم أن نهتم بالآلة بأكثر من أن نضمن صلاحها لإنجاز الوظيفة المبتغاة منها. أي إننا لن نهتم كثيراً

١- انظر: نفسه: ص١٧.
٢- انظر: الأصول: ص١٥.

بمسألة تعبيرية النحو عن نظام اللغة كما هو، بل يكفي أن نحقق جزءاً صالحاً من هذه التعبيرية يحقق لنا الغاية.

فمن خلال الاستقراء الناقص نستطيع استنباط قواعد نحوية نشعر أنها كافية لاستيعاب احتمالات التشكلات، أو العلاقات بين المفردات، ونستطيع بعد ذلك على مستوى النقد أن نتخذ من هذا القواعد قوانين نحاكم على وفقها ما يردنا، ونستطيع على مستوى الإنشاء أن نتخذ منها قوانين نصوغ كلامنا طبقاً لها.

إذن المهم أولاً، وقبل كل شيء هو أن يكون لدينا معيار نزن به الكلام، والاستقراء الناقص يتيح لنا إمكانية الحصول عليه.

ولكننا ولابد أن يكون هذا واضحاً لا نستطيع أن نتجاهل كلياً مسألة تعبيرية القواعد المستنبطة عن نظام اللغة الحقيقي. فطالما كان هذا النظام مُستبطناً في نفس اللغة فلا شك في أنه سيكون فاعلاً بطريقة ما، وسيكون له دور في نجاح، أو فشل المعيار المستنبط، بحسب قرب المعيار، أو بعده منه.

إذن لابد أن نستنبط المعيار من خلال استنطاق نفس اللغة، ونسعى في هذا السبيل جاهدين عسى أن نظفر بأقرب صورة ممكنة لنظام اللغة، وهذا ما يقول النحاة أنهم حصلوا عليه، كما يستشف من قول الخليل، الذي نعيده هنا مع تعليق توضيحي، قال: (إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علله، وإن لم يُنقل ذلك عنها). هذا المقدار من كلامه يوحي بلا شك بأنه يفترض وجود نظام مستبطن في اللغة، يتسرب في عقول مستخدميها الأصليين على الأقل ولو بصورة غير شعورية، وينهجون هم على وفق افتراضاته. ويواصل الخليل قائلاً: (وعللت بما عندي أنه علة لما عللته منه. فإن أكن أصبت العلة فهو الذي التمست، وإن يكن هناك علة غير ما ذكرت، فالذي ذكرته محتمل أنه علة ... فإن سنح لغيري علة لما عللته من النحو هي أليق مما ذكرت بالمعلول فليأتي بها).

هنا يصف عمله بأنه محاولة لبلوغ النظام المستبطن في اللغة.

واضح إنه بعد كل هذا الذي قلناه يبقى السؤال القديم قائماً، وغير مُجاب، والسؤال هو: هل حقاً إن الاستقراء الناقص يحقق للنحويين ما يتطلعون إليه ؟

والجواب هو :كلا، ومن أين لهم أن يظنوا بأن قوانين أخرى قلت أو كثرت لم تَفُتْهُم ؟ وما يدريهم، لعل ما فاتهم يمكن أن يكون مؤثراً في كامل التصور النحوي الذي شادوه. بل الواقع يشير إلى أن النحاة يشعرون بنقص منظومتهم وحاجتها المستمرة للتجديد والمساءلة، وهذا ما يفسر محاولاتهم البحثية الكثيرة، بدءاً من مدرسة الكوفة التي غايرت سابقتها البصرية، مروراً بابن مضاء الأندلسي، وليس انتهاء بنحويي زماننا هذا.

نعم، في ظل ظروف تجعل استقراء كل ما قالته العرب متعذراً كان لابد من عدم غلق باب المحاولات، والملاحظة المستمرة لكلام العرب، وعدم إغلاقها بتاتاً، وهذا ما انتبه له الخليل على الأرجح حين قال: (فإن سنح لغيري علة لما عللته من النحو هي أليق مما ذكرت بالمعلول فليأتي بها).

إبقاء الباب مفتوحاً لا يتناقض مع فكرة الصناعة، بقدر ما يجعل منها واقعاً متحركاً يستوعب كل ما يستجد من ظواهر، كما أنه يمنع من تحول النحو إلى سلطة تضطهد الجديد، وتضيع الرؤى الجديدة التي ربما كانت أقرب إلى حقيقة اللغة.

وإذا كان المنطق السليم يقتضي عدم تحول النحو إلى سلطة، فإنه يمنعنا بالتأكيد من النظر إلى النحو بصورته الفعلية، أو التي بين أيدينا على أنها قانون كامل مكتمل ينبغي الخضوع له.

بل لأذهب إلى أبعد من هذا، فأقول: إن علينا أن ننظر لصناعة النحو على أنها آلية ننتفع منها في تحديد معنى ما يقال أو يكتب، وننحي كاملاً فكرة اتخاذها فيصلاً في تحديد الصائب، وغير الصائب من الكلام [١].

وما الضير بالنتيجة من أن يكون لنا نحو مختص مثلاً باللغة الأدبية، وآخر بلغة القرآن، وثالث بلغة عصر ما ؟ بل ما المحذور الخطير الذي نقع فيه إذا ما حاولنا تجريد هيكل نحوي

١ـ هذه الفكرة على أية حال فكرة سخيفة، ولعل النحاة المتبجحين أشاعوها ليحظوا بمنزلة تميزهم عن غيرهم.

يستوعب ما يسمونه الآن لهجات ؟ أليست اللغة كائناً متطوراً، فلماذا الجمود على صورة واحد فقط ؟

أخيراً لا ينبغي أن ننسى أن الاستقراء الذي قاموا به ليس فقط ناقصاً، بل هو ناقص جداً، وخضع للكثير من التحكمات، كما مر، وكما سيأتي.

٣ القياس قبل الاستقراء:

يقول الدكتور تمام حسان بهذا الخصوص: (ولما كانت الرحلة إلى البادية للسماع لم تبدأ إلا بعد أن كان ابن أبي اسحق قد "بعج النحو ومد القياس وشرح العلل" فقد وجد النحاة أنفسهم ينظرون في المسموع وفي أيديهم أصول ثابتة يقيسون عليها ويتخذون معايير حتى بالنسبة لما يقوله الفصحاء) [١].

النحاة بحسب هذه الحقيقة التي يذكرها الدكتور تمام حسان، والتي تدل عليها الكثير من الشواهد والمواقف يضعون العربة أمام الحصان على حد تعبير المثل، فالمنهج العلمي يستدعي أن يسبق السماعُ والاستقراءُ ثم على ضوئه يتم القياس وتقعّد القواعد. أما أن يكون القياس متقدماً على السماع، فهذا يعني أن النحوي يسمع اللغة بقصد العثور على القاعدة المقررة في ذهنه سلفاً، وعندئذ لن يتوانى قيد أنملة في وصم ما يخالف التصور القار في ذهنه على أنه شذوذ، أو لهجة، أو خطأ نحوي، وفي أحسن الأحوال تراه يعمد لآلية التأويل وتقليب الوجوه، برجاء العثور على وجه يناسب قاعدته.

ولعلنا على ضوء هذا الانحراف المنهجي نستطيع تفسير الاعتراضات، والتخطئات الكثيرة التي كان النحاة الأوائل يواجهون الشعراء بها، من قبيل ما روي عن عبدالله بن اسحق الحضرمي (ت١١٧هـ .) وعيسى بن عمر (ت١٤٩هـ .)، وهما من أوائل النحاة.

وقد سبق أن روينا قصة عبد الله بن اسحق الحضرمي مع الفرزدق، وله معه قصص أخرى، منها ما نقله الشيخ محمد الطنطاوي عن الشعر والشعراء، بقوله: (كما عابه في قوله:

مستقبلين شَمال الشام تضربنا *** بحاصب كنديف القطن منثورِ

١- الأصول - مصدر سابق: ص٩٥ – ٩٦.

على عمائمنا يُلقى وأرحلنا *** على زواحف تُزجى مخها ريرِ

فقال: إنما هو رير بالرفع، وإن رفع أقوى. فوجد عليه الفرزدق، وقال: أما وجد هذا المنتفخ الخصيتين لبيتي مخرجاً في العربية ؟ أما إني لو أشاء لقلت:

على عمائمنا يلقى وأرحلنا *** على زواحف نزجيها محاسير

ولكني والله لا أقوله، ثم هجاه، بقوله:

ولو كان عبد الله مولى هجوته *** ولكن عبد الله مولى مواليا

فقال عبد الله: عذره شر من ذنبه، فقد أخطأ أيضاً والصواب: مولى موال) [١].

أما عيسى بن عمر فقد قيل عنه: (وكان عيسى بن عمر يطعن على العرب ويُخطئ المشهورين منهم مثل النابغة الذبياني في بعض أشعاره، ولعل السبب في هذا أنه كان متشدداً متقعراً في اللغة) [٢].

أقول: إذا كان هؤلاء الشعراء وأضرابهم عنهم تؤخذ اللغة، وعلى وفق كلامهم تقعّد القواعد، فما معنى الاعتراض عليهم، وعلى أي أساس يقوم ؟ أليس يعني بالضرورة أنهم يحكّمون آراءهم وتصوراتهم المسبقة على كلام العرب ؟

٤ الاعتماد على اللغة الأدبية:

يعبر الدكتور تمام حسان عن هذه الحقيقة بقوله: (لقد كان من السهل على النحاة سهولة نسبية أن يستخرجوا القواعد من اللغة الأدبية، أما الكلام اليومي في البيت والسوق والمحادثة العابرة فما أشق ما تستخرج منه القواعد حتى لو تم تسجيله بآلات التسجيل الحديثة؛ لأن هذا الكلام بعيد كل البعد عن الاطراد والاستمرار. فقد تجد فيه الجملة الناقصة والجملة التي حذف بعضها والجملة التي عدل صاحبها عن إكمالها والجملة التي تطوع السامع بإكمالها فلم يعترض عليه المتكلم أو اعترض بجملة أخرى والجملة التي أغنت الإشارة أو الإيماءة أو

١- نشأة النحو وتأريخ أشهر النحاة - الشيخ محمد الطنطاوي دار المعارف: ط٢ ص٧٣ – ٧٤.
٢- الوسيط في تأريخ النحو العربي - مصدر سابق: ص٥٠.

التقطيبات عن ذكرها والجملة التي حالت المقاطعة دون إكمالها والجملة التي خالطها الضحك أو التثاؤب فلم تعد واضحة التركيب، فلهذا السبب ولأسباب تعود إلى المحافظة على القرآن عدل النحاة عن استنباط النحو من الكلام العادي فكان عليهم أن يلجأوا إلى لغة الأدب؛ لأنها لغة القرآن والحديث والشعر، ولكن استشهادهم بالقرآن والحديث كان قليلاً إذا قيس باعتمادهم في التقعيد والاستشهاد على لغة الشعر) [١].

إذن كان اعتمادهم على اللغة الأدبية وهذا انتقاء وتضييق يجعل من الاستقراء الناقص مضاعف النقص، ويزيد التضييق باعتمادهم لغة الشعر بنحو أخص.

كما إن ثمة محذور آخر يعبر عنه الدكتور إبراهيم السامرائي بقوله: (ولا أدري كيف يتخذ النحويون لغة الشعر مادتهم في الاستشهاد بحيث كان للشعر الغلبة على عامة الشواهد اللغوية والنحوية، و لم يأخذوا بالحديث ؟ ومن المعلوم أن لغة الشعر لغة خاصة للوزن والقافية فيهما سلطان، ومن هنا جاز للشاعر ما لا يجوز للناثر، فكيف تكون مادة تقوم عليها قواعد النحو ؟) [٢].

ويقول الدكتور تمام حسان: (ولقد كان كلام العرب في نظر النحاة يشمل الشعر والنثر على حد سواء، ولكن ذلك كان من الناحية النظرية أما من حيث التطبيق فقد رأينا النحاة يحتفلون بالشعر إلى درجة ألهتهم أو كادت تلهيهم عما عداه من الكلام. ولقد سبق أن بينا أن للشعر لغته الخاصة التي تسعى إلى تحقيق الغايات الجمالية أول ما تسعى ولو كان ذلك على حساب عرفية الاستعمال وصحة التركيب بحسب القواعد. فهذه اللغة تتسم بالضرائر الشعرية كما تتسم بالترخص في القرائن اللفظية. ولهذا لا ينبغي أن نرى لغة الشعر نموذجاً للاستعمال العربي؛ لأنه إذا كان المقصود بإنشاء النحو وصف النموذج العادي الذي تتمثل فيه اللغة العربية الفصحى فإن لغة الشعر بما نسبناه إليها من خصوصية البناء والتركيب والضرائر والرخص تقصر دون تمثيل اللغة الفصحى تمثيلاً كاملاً أو مقبولاً حتى مع التسليم بأن تكون اللغة التي يستنبط منها النحو هي اللغة الأدبية دون غيرها (على عكس ما يقول به المنهج الحديث). وهذه الخصائص التركيبية التي تمنح الشاعر قدراً من الحرية التي لا يتمتع بها غيره في

١- الأصول - مصدر سابق: ص٧٩.
٢- المدارس النحوية - إبراهيم السامرائي دار الفكر: ط١- ١٩٨٧ ص٢٧.

تركيب الجمل وضعت النحاة أمام المسموع من الشعر بصوره التي لا تلتزم التزاما تاماً بغير المعايير الجمالية، فساعد ذلك على نشأة الخلاف بين النحاة حول رد النصوص الشعرية إلى الأصول النحوية، وعندما يعجز النحاة عن التوفيق بين الشعر والنحو يعترفون بالضرورة والرخصة) [١].

٥ ترك الاستشهاد بالقراءات القرآنية والحديث:

على الرغم من أن الكثير من النحاة الأوائل كانوا من القراء مثل عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، وعيسى بن عمر الثقفي، وأبو عمرو ابن العلاء، والخليل بن أحمد الفراهيدي من البصريين، وعلي بن حمزة الكسائي، ويحيى بن زياد الفراء من الكوفيين، إلا أن موقف النحويين من القراءات سجل نتيجة عكسية لهذه العلاقة التي يُفترض أن تكون وطيدة.

فالغالب الأعم من النحويين كان يرفض القراءة إذا ما خالفت قياسهم النحوي، فالأخفش الأوسط (ت٢١٥ هـ .) على سبيل المثال (كثيراً ما يصف قراءة متواترة بأنها اضطرار. أو أنها رديئة. أو ربما وصل به الأمر بأن يصفها بالقبح. مما يشير إلى ضعف هذا الوازع عنده.

ففي قوله تعالى: ﴿فَرِهانٌ مقبوضةٌ﴾[٢]. قرأ أبو عمرو: (فَرُهُنٌ) بضم الراء، والهاء، وبدون ألف. وهي قراءة سبعية متواترة.

قال الأخفش: قراءةُ ضم الراء، والهاء قبيحةٌ. وعلَّل ذلك بأن (فَعْلاً) لا يُجمع على (فُعُل) إلا قليلاً شاذاً. وقال أبو عمرو: قالت العرب (رُهُنٌ)؛ ليفصلوا بينه وبين (رهان) الخيل. فالأخفش يقبح هذه القراءة المتواترة، مع أن العرب قد أدارتها على ألسنتها.

وإذ نيمم وجهنا تلقاء الكسائي الذي قرأ كتاب سيبويه هو والفراء على الأخفش، نجد أن الرجل يتبع النهج نفسَه.

١- الأصول: ص٩٦.
٢- البقرة: ٢٨٣.

ففي قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ﴾[١]. قرأ الجمهور ببيان الدال من السين، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي بالإدغام. وهما قراءتان متواترتان.

قال أبو حيان: قال خلف بن هشام البزار: سمعت الكسائي يقول: من قرأ: (قد سمع)، فبيَّن الدال عند السين، فلسانه أعجمي ليس بعربي ... والفراء يحذو حذو شيخه، ويترسم خُطاه في ذلك. فتراه مرةً يرد قراءة متواترة، وينسب الوهم إلى القراء بأنهم لم يكونوا متقنين، وفطنين، وإنما يتطرق الوهم إلى ذاكرتهم، فيخطِئون في قراءة كلمة لم يكن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد قرأ بها.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾[٢]. قرأ حمزة، والأعمش، ويحيى ابن وثاب، وحمران بن أعين: (بمصرخيِّ) بكسر الياء، وهي قراءة سبعية متواترة قال الفراء: ولعلها من وهم القراء طبقة يحيى فإنه قل من سلم منهم من الوهم. ولعله ظن أن الباء في: (بمصرخي) خافضة للحرف كلِّه، والياء من المتكلم خارجة عن ذلك. والنحويون يعللون ذلك بأن الكسر مطرد في لغة بني يربوع في الياء المضاف إليها جمع المذكر السالم، وخص ذلك بالوصل. قال شاعرهم، وهو الأغلب العجلي:

قال لها: هل لك يا تافيِّ * * * قالت له : ما أنت بالمرضيِّ

وكذلك فإن هذه اللغة حكاها قطرب، وأجازها أبو عمرو.

وهذه القراءة صحت سماعاً، كما أنها صحت قياساً، إذ الياء كسرت إتباعاً للكسرة التي بعدها في: (بمصرخيِّ إني)، واللسان معها يعمل من موضع واحد، ووجه واحد. ففيها الانسجام، وتقريب الأصوات بعضها من بعض، وذلك ما يميل إليه البدو أمثال بني يربوع. ويكرر الفراء نسب الوهم للقراء في مواطن متعددة.

١- المجادلة: ١.
٢- إبراهيم: ٢٢.

والفراء لم يقف عند هذا الحد، فهو نفسُه يقع في الوهم الذي ألصقه بغيره. ففي قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾[١]. يقول: والقراء جميعاً لم يهمزوا (ضيزى). ومن العرب من يقول: ضَيْزى. وبعضهم يقول: قسمةٌ ضَأْزى، وضُؤْزى، بالهمز، و لم يقرأ بها أحد نعلمه.

والحق أن (ضَأْزى) بالهمز هي قراءة سبعية متواترة، قرأ بها ابن كثير.

ومن هنا نلاحظ أن الفراء أكثر من تقبيح قراءة متواترة عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ووصف أخرى بالرداءة، وثالثة بالوهم كما مر ورابعة بالشذوذ، وخامسة يقول عنها: لا أستحبها على هذا الوجه. كل ذلك مما يدلنا على أنه لم يلتزم بما التزم به سيبويه من أن القراءة سنة يأخذها الآخر عن الأول، بل اتبع منهج أستاذه الأخفش في رد كثير من القراءات ... ومن المعروف كذلك أن المازني كان أحد اثنين قرأ كتاب سيبويه على الأخفش الأوسط، وتتلمذ على يديه، وحذا حذوه في التنكر لبعض القراءات المتواترة، فراح يطعن على القراء، ويسخر منهم، وعدهم من الجهلاء الذين يتعلقون بالألفاظ، ويجهلون المعاني.

والمبرد الذي ختمت المدرسة البصرية به، لم يكن ليستطيع التخلص مما طبعه به أستاذُه المازني من رد بعض القراءات المتواترة، والشاذة، وإن كان ذلك عنده أقل مما هو موجود عند الفراء، والأخفش الأوسط.

ففي كتابَيْه (المقتضب)، (والكامل)، نجد أن الرجل قد ساقه قلمُه للطعن في بعض القراءات، و لم يلتزم بالقاعدة المشهورة المذكورة سلفاً [٢].

فالنحويون إذن قدموا قواعدهم وأقيستهم على القراءات على الرغم من كون بعضها كما يقولون متواتر، وبعضها صحيح، بل حتى الضعيف والشاذ قد ورد من ألسنة عرب مشهود لهم بفصاحة اللسان، وجميعهم داخل في عصر الاستشهاد.

يقول الدكتور السيد مصطفى جمال الدين في صدد حديثه عن القراءات: (وحتى لو افترضنا بأن القرآن لم يترل إلا بواحدة منها، تبقى الأخريات من أقوى الحجج النحوية؛ لأنها

١- النجم: ٢٢.

٢- حقيقة رأي البصريين والكوفيين في الاستشهاد بالقراءات القرآنية على قواعدهم النحوية - د. عبد الفتاح محمد عبوش - مجلة دراسات يمنية - بحث منشور على شبكة الانترنيت: ص١٣٠ وما بعدها.

نصوص عربية فصيحة، ورواتها من الصحابة والتابعين قوم فصحاء، وفي قمة العصر الذي يحتج به النحاة عادة. ولكن النحاة مع ذلك لم يبحثوا في حجة القراءات، و لم يحققوا فيها كما حقق الأصوليون في حجية الظواهر، بل إن النحاة وبخاصة نحاة البصرة لم يجعلوا القراءات مع تواترها أولى بالاحتجاج من شواهدهم التي أقاموا عليها قواعدهم، وردوا كثيراً منها متهمين أصحابها باللحن أو الشذوذ؛ لأنها تخالف القاعدة التي بنوها على الشاهد والشاهدين، وربما كان هذا الشاهد لشاعر مجهول، أو امرأة من أسد أو تميم غير معروفة، حتى انتقد ذلك الفخر الرازي (٦٠٦ هـ .) في أثناء شرحه لقوله تعالى في أول النساء: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ وقراءة حمزة ومجاهد لها بجر (الأرحام) التي رفضها البصريون؛ لأنها مخالفة لقاعدتهم بعدم جواز العطف على الضمير من غير إعادة حرف الجر، وتجويز سيبويه لذلك مستشهدا ببيتين مجهولي القائل، مثل: فاليوم قربت تهجونا وتشتمنا * فاذهب فما بك والأيام من عجب بجر (الأيام) عطفاً على (بك) فعلق الفخر الرازي: (والعجب من هؤلاء النحاة أنهم يستحسنون إثبات هذه اللغة بهذين البيتين المجهولين، ولا يستحسنون إثباتها بقراءة حمزة ومجاهد، مع أنهما من أكابر علماء السلف في علم القرآن)[١].

ولعل النص المشهور عن ابن الجزري يدل بوضوح على جعلهم النحو والعربية حاكماً على القراءة، بينما المفروض أن يكون العكس هو الصحيح، يقول: (كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وصح سندها، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها، ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، سواء كانت عن الأئمة السبعة، أم عن العشرة، أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين. ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة، أطلق عليها ضعيفة، أو شاذة، أو باطلة، سواء كانت عن السبعة، أو عمن هو أكبر منهم. وهذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف ... الذي لا يعرف عن أحد منهم خلافه) [٢].

١- رأي في أصول النحو - مصدر سابق: ص١١٠ وما بعدها.
٢- النشر في القراءات العشر لابن الجزري: ج١ ص٩.

فهو يشترط موافقة العربية والمقصود هنا النحو لقبول القراءة، بل يجعلها أول الشروط.

بينما هو نفسه يقول رواية عن الداني: (وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف قراءة القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل والرواية، إذا ثبتت عندهم لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة؛ لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها) [١].

فإذا كانت القراءة أثر منقول، فما معنى محاكمتها بقواعد العربية ؟

أما موقفهم من الحديث فيبينه الدكتور إبراهيم السامرائي بقوله: (ومما يؤخذ على أوائل البصريين أنهم استبعدوا الحديث الشريف في استشهادهم بحجة أن الحديث يشتمل على قدر كبير روي بالمعنى و لم يضبط بلفظه، وأن طائفة كبيرة من المحدثين لم يكونوا عرباً ينتمون إلى أصول عربية هي موضع ثقة في عربيتها) [٢].

ويرد عليهم الدكتور تمام حسان، بقوله: (كان ينبغي للنحاة أن يراعوا أن الذين تلقوا هذه الأحاديث تلقياً مباشراً عن الرسول صلوات الله عليه [وآله] كانوا من الصحابة وهم عرب خلص من ذوي الفصاحة والسليقة، فلو أن واحداً منهم خانته ذاكرته في خصوص اللفظ لأدى المعنى بألفاظ فصيحة من عنده، فإذا سلمنا بذلك انتقلنا من بعدهم إلى رواة الحديث من التابعين وتابعي التابعين فوجدناهم أحد فريقين؛ لأنهم كانوا إما عرباً أقحاحاً يصدق عليهم ما صدق على الصحابة رضوان الله عليهم، وإما من الأعاجم الذين عرفوا بصدق حرصهم على حرفية النصوص، وأنهم إذا تلقوا عن صحابي أو تابعي عضّوا بالنواجذ على ما كان لديهم. ثم إنهم كان لهم من البصر بنقد الحديث سنداً ومتناً ما يدعو إلى الاطمئنان عليهم وإليهم من حيث المحافظة على النص، ولاسيما أن الاعتماد على التدوين في ذلك العصر لابد أن يكون قد خفف الحمل على ذواكر الحفاظ من المحدثين، لا نقول إنه شجعهم على النسيان، وإنما نقول أعانهم على عدم النسيان، وعلى ضبط النص بالصورة التي تلقوه بها من الصحابي أو التابعي ذي السليقة. زد على ما تقدم أن هؤلاء الأعاجم لم يكونوا

١- النشر في القراءات العشر: ج١ص١٠.
٢- المدارس النحوية: ص٢٦.

يروون الأحاديث في عالم غير عالم النحاة الذين بدءوا جهودهم النحوية في ظل مجتمع فصيح. أي إن هؤلاء المحدثين من الأعاجم كانوا يروون ما معهم من أحاديث في وسط فصيح، و لم نسمع أن الأحاديث التي كانوا يروونها خالفت القواعد أكثر مما خالفها الشعر العربي) [١].

ويقول الدكتور السيد مصطفى جمال الدين: (وبإهمال النحاة الاحتجاج بالسنة، أفقدوا نحوهم أوسع مصادره الموثوقة، واقتصروا على شواهد من الشعر والأمثال، فوقعوا فيما وقعوا فيه من نقص الاستقراء، في حين استفاد أصحابهم اللغويون من احتجاجهم بالسنة فأثروا معجماتهم بمفردات عربية سليمة. ويضيف قائلاً: إنهم لم يعتمدوا في تحقيق ما احتجوا به من شواهد الشعر والأمثال، كما اعتمد الفقهاء والمحدثون في تحقيق السنة النبوية سنداً ومتناً لذلك جاء الكثر من شواهدهم مجهول القائل والرواية، بل وجد فيما احتجوا به نفس السببين اللذين أنكروهما على الأحاديث: وقوع التصحيف واللحن ... والنقل بالمعنى أحياناً، كما أنهم لم يتحرجوا في الاحتجاج بما نقله مثل حماد الرواية الذي كان كما يقول يونس : (يلحن، ويكسر الشعر، ويكذب، ويصحف)، ويروى أن الكميت امتنع عن إملاء شعره عليه، وقد طلب منه ذلك، وقال له: "أنت لحان ولا أكتبك شعري") [٢].

٦ معيار الفصاحة معيار ذاتي:

يقول الدكتور تمام حسان: (ومن عجب أن الذي حدد مفهوم الفصاحة هم النحاة واللغويون) [٣].

والملاحظ أنهم لم يحددوا معياراً معقولاً يميزون على أساسه بين الفصيح وغير الفصيح سوى اعتبارهم ما نطق به العرب في جاهليتهم نموذجاً قياسياً للفصيح، حتى أن كبار الرواة من قبيل أبي عمرو ابن العلاء لم يكن يروي لشاعر إسلامي رغم استحسانه لشعرهم لأنهم لم يدركوا ولو يوماً واحداً من الجاهلية !

١- الأصول: ص٩٤.
٢- رأي في أصول النحو: ص١١٤.
٣- الأصول: ص٩٧.

ولعل موقفهم هذا من كلام الجاهليين ناشئ من ظنهم أن العرب في جاهليتهم لم يخالطوا الأقوام الأخرى فبقيت لغتهم محتفظة بنقائها، بعيداً عن اللحن.

ولكن هذه الفكرة أقرب إلى الوهم منها إلى الحقيقة، فعرب الجاهلية لم يكونوا منعزلين عن العالم المحيط بهم، بل كانت لهم صلات مختلفة مع الأقوام الأجنبية، فكانوا يتاجرون مع الشام والعراق واليمن والهند والحبشة. وليس من شك في أن هذا الاختلاط ستكون له انعكاسات على ثقافتهم ولغتهم.

كذلك فإن اختيار فترة الجاهلية أو على وجه التحديد الـ (١٥٠) سنة التي سبقت بزوغ فجر الإسلام على أنها المثال اللغوي للغة العرب يبدو تعسفياً للغاية، فلماذا لم يتم اختيار فترة أبعد زمناً من هذه؛ ولتكن المئتين أو الأربعمئة سنة السابقة للإسلام على سبيل المثال ؟ فلا شك في أن لغة العرب قبل أربعمئة سنة من الإسلام ليست هي نفسها قبل مئة وخمسين عاماً منه، طالما كانت اللغة كائناً متطوراً يواكب الحاجات المستجدة والمستوى الثقافي المتغير.

ولماذا لم يعتبروا لغة العرب قبل مئة وخمسين عاماً من الإسلام لحناً قياساً بما تقدمها من فترات زمنية، كما اعتبروا اللاحق لها ؟

قد يقولون إن ما وصلنا من لغة العرب لا يتعدى فترة المئة وخمسين عاماً السابقة للإسلام، أما ما قبلها فلم يصلنا منه شيء، أو على الأقل لم يصلنا ما يكفي للدراسة واستنباط القواعد منه. أقول لا بأس ولكن هذا لا يخولهم النظر إلى هذا الواصل على أنه اللغة المثالية التي يجب أن يُقاس عليها. ولماذا لا يعتبرون لغة كل عصر على أنها اللغة الأفصح بالنسبة لهذا العصر نفسه، ويدرسون لغة كل عصر بحد ذاتها ويحددون القواعد التي تنتظمها ؟ لماذا اعتبروا اللاحق لحناً وخروجاً على الأفصح الذي حددوه بما سبق أن ذكرنا ؟

الغالب على الظن أنهم بعد أن وضعوا الأقيسة جعلوا منها ميزاناً يحددون على أساسه الفصيح، وتحديدهم لاشك سيتبع أقيستهم وقواعدهم، وبالنتيجة سيكون كلام العرب تابعاً لقواعدهم وليس العكس كما هو المفترض. فيكون معيار الأفصح هو ما وافق أقيستهم لا أكثر.

ومما يتصل بهذا الموضوع اعتبارهم لهجة قريش مثالاً للغة الفصحى، أو الأفصح، وأن العرب قد أخذوها منهم، كما يقول الدكتور تمام حسان [١].

بينما المعروف عن قبيلة قريش إنها من أكثر القبائل اتصالاً بالأعاجم، من خلال تجارتها، ولاسيما في رحلتي الصيف والشتاء، كما إن قريش لم يُعرف عنها شعر كما عُرف عن غيرها من قبائل العرب الأخرى، فكيف أصبحت مقياساً للفصاحة ؟

ثم إنهم جعلوا من لغة القرآن نموذجاً للفصيح كذلك، وفي القرآن الكثير من التعابير والألفاظ المخالفة لنحوهم، والتي لم يسبق للعرب أن استخدموه في كلامهم، من قبيل قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً﴾[٢]. ولم يسبق للعربي أن استخدم كلمة (كباراً)، ومن قبيل قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[٣]. والقرآن أول من استخدم كلمة (عجاب) وكذلك الفعل (يخصِّمون)، و (يهدِّي)، وكلمة (طغواها)، و (منسأته)، كما في الآيات التالية:

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾[٤].

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٥].

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾[٦].

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾[٧].

وهناك الكثير من الكلمات ذات الأصول الأجنبية، مثل كلمة (سندس) و (إستبرق)، وغيرها الكثير.

١- انظر: الأصول: ص٧١.
٢- نوح: ٢٢.
٣- ص: ٥.
٤- يس: ٤٩.
٥- يونس: ٣٥.
٦- الشمس: ١١.
٧- سبأ: ١٤.

كل هذا يدل على أن الوقوف عند زمن معين على أنه مثال الفصاحة تحكم لا يسعفه الدليل.

٧ الانحرافات التي وقعت في جمعهم للغة:

سأنقل هنا النقاط التي سجلها الدكتور عبد الكريم محمد الأسعد، كما يلي [١]:

كان هَمُّ من جمعوا اللغة أن يسجلوا أكبر قدر من ألفاظها من شتى لغات العرب دون أن يهتموا كما يجب بتحديد هذه اللغات وإيضاحها والفصل بينها ونسبتها إلى أصحابها دائماً.

أخذ بعضهم اللغة في بعض الأحيان عن الكتب، وقد كانت هذه الكتب غير منقوطة، أو كان النساخ يغفلون عن نقطها، فنشأ عن ذلك أنواع من التصحيف والاختلاف.

لم يكن رواة اللغة في درجة واحدة من حيث التحري والثقة بهم فيما يروون.

الشعر الموضوع الذي قصد به واضعوه أن يعززوا رأياً أو يبرهنوا على وجهة نظر، وقد وضع المولدون [٢] كثيراً من هذا ودسوه على الأئمة فرواه هؤلاء واحتجوا به.

عدم تحديد معاني الألفاظ تحديداً تاماً يرفع اللبس عنها ويزيل الشبهة منها.

اختلاف اللهجات وتباين طريقة النطق جعل بعض من يروون الشعر أو ينشدونه ينطقون به على مقتضى لهجتهم وبطريقة نطقهم الخاصة بهم فنجم عن هذا شيء من الاختلاف.

٨ اضطرابهم في تحديد مفهوم المطَّرد:

أقام النحاة قواعدهم على ما يطرد من الظواهر، وعلى الرغم من أن هذا المقياس وهو الاطراد لا يتناسب مع ظاهرة إنسانية مثل اللغة تخضع للتطور والتغيير، إلا أنه يُلاحظ عليهم اضطرابهم في تحديد مفهوم المطرد، كما يقول الدكتور محمود الجاسم، الذي يضيف قائلاً: (هناك أنماط تركيبية يعتقد بعضهم أنها تطرد في الكلام شعراً ونثراً، فيجعل منها قاعدة يقيس عليها، على حين يعتقد بعضهم الآخر أن هذه الأنماط لا تطرد في كلام العرب، وبذلك

١- الوسيط في تاريخ النحو العربي: ص١٩.
٢- المولدون مصطلح نعتوا به بعض الشعراء المتأخرين من قبيل أبي نؤاس وأضرابه ممن لم يستشهدوا بشعرهم.

لا يجوز التقعيد لها والقياس عليها، من ذلك أسلوب القلب، فقد ذهب قسم من النحاة إلى أنه يجوز في الكلام والشعر اتساعاً واتكالاً على فهم المعنى، وبناءً على ذلك حلّلوا بعض الأساليب التي وردت في القرآن الكريم قياساً على القلب، على حين ذهب نحاة الأندلس إلى أن هذا النمط غير مطرد، ولا يجوز في الكلام إنما يجوز في الشعر اضطراراً، وبذلك لم يقيسوا تلك الأساليب التي وردت في القرآن الكريم عليه، بل وجهوها وجهة أخرى. فالنحاة هنا لم يختلفوا في التقعيد والقياس على المطرد، وإنما اختلفوا في تحديد المطّرد، وبناءً على ذلك حدث الخلاف في التقعيد والقياس) [١].

وإذا كان الاطراد هو المعيار، فإن عدم وجود مفهوم محدد ومتفق عليه يفتح الباب على مصراعيه أمام الاعتبارات الذاتية، والاختيارات الشخصية، ويبتعد بعملهم عن الموضوعية.

بل إن نفس مسألة الاطراد كانت موضع خلاف بين البصريين والكوفيين، فالكوفيون قد يقيسون ويبنون قاعدة على الشاهد والشاهدين ولا يراعون مسألة اطراد الشواهد كما يفعل البصريون. وإذا كان توجه الكوفيين قد ينتج عنه إرباكاً لصناعة النحو، فإنه قد يبدو من وجهة نظر أخرى أقرب إلى الروح العلمي، باعتبار أنهم يبقون حتى النهاية أمناء على المنهج الذي ينبني على فكرة استنباط القاعدة من كلام العرب، لا فرض القاعدة على كلامهم.

* * *

إهمال النحو العربي لقضية التطور:

لا يمكن لأحد إنكار قضية أن اللغة كائن يتطور، والتطور هذا لا يقف عند حدودها المعجمية والصرفية، بل يمتد بالتأكيد لبنيتها النحوية. ولعل إغفال، أو تجاهل مبدأ التطور يمثل الملمح الأبرز من ملامح تعنت النحويين العرب، فقد وسموا ظواهر التطور في اللغة بميسم اللحن والانحراف، و لم يلاحظوا أن ما طرأ على ألسنة الناس وسلائقهم [٢] من تغيير إنما هو نتيجة طبيعية لفعل التطور.

١- أسباب التعدد في التحليل النحوي: د.محمود حسن الجاسم. بحث منشور في الانترنيت.

٢- يتحدث اللغويون والنحويون عن ما يسمونه سليقة أو طبيعة كانت لدى العرب في نطق لغتهم بالحركات المعروفة دون خطأ، أو انحراف، وأراني أميل بقوة إلى اعتبار هذا الأمر واحدة من الأساطير التي لا يمكن للنحاة إثباتها.

والغريب أنهم يبررون كثيراً من قواعدهم بمقولة السهولة، فمثلاً يقولون أن المنصوبات أكثر من المرفوعات في العربية لأن الفتحة أسهل على اللسان من الضمة، قال ابن جني في الخصائص: (قال أبو إسحاق في رفع الفاعل، ونصب المفعول: إنما فُعل ذلك للفرق بينهما ثم سأل نفسه فقال: فإن قيل: فهلا عُكِست الحال فكانت فرقاً أيضاً ؟ قيل: الذي فعلوه أحزم؛ وذلك أن الفعل لا يكون له أكثر من فاعل واحد، وقد يكون له مفعولات كثيرة، فرُفع الفاعل لقلته، ونُصب المفعول لكثرته وذلك ليقل في كلامهم ما يستثقلون، ويكثر في كلامهم ما يستخفون) [١].

ولكن كيف غفل النحاة، أو تجاهلوا أن العربي ربما انطلاقاً من نفس مبدأ طلب السهولة يخالف ما يسمونه قواعد !

وهل يشك أحد أن قواعد النحويين التي تحتاج جهداً جباراً للإحاطة بها تمثل ثقلاً باهظاً يرى أكثر الناس أنه متكلف جداً ولا ضرورة له. وكيف وهذا ابن مضاء القرطبي وهو نحوي أندلسي يقول في كتابه (الرد على النحاة) ما مضمونه أن النحاة قد عقدوا اللغة وحطوا كلام العرب عن رتبة البلاغة.

* * *

١- الخصائص - أبو الفتح عثمان بن جني - تحقيق محمد علي النجار - المكتبة العلمية: ج١ ص٤٩.

نتيجة ما تقدم:

لا أريد للنتيجة التي يمكن استخلاصها مما تقدم أن تكون أوسع من موضوع هذا الكتاب، على الرغم من أن ما ذُكر وهو ليس كل ما يمكن أن يقال كافٍ للخروج بنتيجة محرجة للغاية بالنسبة لموقعية ما يسمى بعلم النحو بين العلوم الحقيقية، ولكن لتكن النتيجة المستخلَصة هي أن ما تقدم يجعل كلام من يطالب المعصوم بالتزام القواعد النحوية بحجة أنها قوانين حقيقية لابد للمعصوم بما يمتلك من علم أن يكون محيطاً بها وملتزماً بإتباعها يجعله كلاماً لا يقوم على حجة، وتنقصه المعرفة بحقيقة هذه القواعد.

أقول: هذا من باب الذهاب مع المعاند للحد الأقصى الذي يمكن أن يصله، وإلا فإن هذا الموضوع برمته لا علاقة تربطه بمسألة العصمة. فالمعصوم هو المعتصم بالله عن محارم الله كما عرفنا، وليس من لوازم الاعتصام بالله أن يكون العبد ملماً ولا محيطاً بما يسمونه علم النحو.

أما ما روي من أن مؤسس علم النحو هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فهو لا يصمد للنقد من عدة جوانب؛ منها أن هذا المروي لم يرد من طريق أهل البيت عليهم السلام، ومنها أن مروياتهم في هذا الشأن متضاربة، فقد ورد في كتاب "نزهة الألبّاء": (أول من وضع علم العربية وأسس قواعده وحد حدوده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأخذ عنه أبو الأسود الدؤلي ... وروي أن أبا الأسود جاء إلى زياد أمير البصرة، فقال: إني أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم وفسدت ألسنتها، أفتأذن لي أن أضع للعرب ما يعرفون به كلامهم؟ فقال له زياد: لا تفعل، قال: فجاء رجل إلى زياد فقال: أصلح الله الأمير، توفي أبانا وترك بنوناً، فقال زياد: أدعُ لي أبا الأسود، فلما جاءه قال له: ضع للناس ما كنت نهيتك عنه ففعل. وروي أيضاً أن أبا الأسود قالت له ابنته: ما أحسن السماءِ! فقال لها: نجومها، فقالت: إني لم أرد هذا، وإنما تعجبت من حسنها، فقال لها: إذن فقولي ما أحسنَ السماءَ! فحينئذٍ وضع النحو) [1].

وقال القفطي: (الجمهور من أهل الرواية على أن أول من وضع النحو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، قال أبو الأسود: دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام فرأيته مطرقاً مفكراً، قلت:

١- الوسيط في تاريخ النحو العربي: ص٢٧ وما بعدها.

فيم تفكر يا أمير المؤمنين ؟ قال: سمعت ببلدكم لحناً فأردت أن أضع كتاباً في أصول العربية، ثم أتيته بعد أيام فألقى إليّ صحيفة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، الكلام: اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل، ثم قال: تتبعه وزد فيه ما وقع لك، واعلم أن الأشياء ثلاثة: ظاهر ومضمر، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر، وإنما يتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بمضمر ولا ظاهر.

وفي الإنباه أيضاً رواية عن أبي الأسود ، قال: "دخلت على أمير المؤمنين فأخرج لي رقعة فيها: (الكلام كله اسم وفعل وحرف جاء لمعنى) فقلت: ما دعاك إلى هذا ؟ قال: رأيت فساداً في كلام بعض أهلي فأحببت أن أرسم رسماً يعرف به الصواب من الخطأ، فأخذ أبو الأسود النحو من علي و لم يظهره". وفي الإنباه أيضاً ولعلها ملحقة بالرواية السابقة : إن زياداً سمع بشيء عند أبي الأسود ورأى اللحن قد فشا فقال لأبي الأسود: أظهر ما عندك للناس ليكون إماماً، فامتنع عن ذلك ... وذكر السيد حسن الصدر في كتابه تأسيس الشيعة: "قال ركن الدين علي بن أبي بكر الحديثي في كتاب الركني: "إن أول من وضع النحو أبو الأسود، أخذه من علي عليه السلام وسببه أن امرأة دخلت على معاوية في زمن عثمان وقالت: أبوي مات وترك مالاً، فاستقبح معاوية ذلك، فبلغ فرسم لأبي الأسود، فوضع أولاً باب الإضافة".

وقال ابن الأنباري: "وروي أن سبب وضع علي لهذا العلم أنه سمع أعرابياً يقرأ: لا يأكله إلا الخاطئين، فوضع النحو". وقال ابن خلكان: "وقيل: كان أبو الأسود يعلم أولاد زياد بن أبيه فجاء يوماً وقال له: أصلح الله الأمير، إنني أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم، وتغيرت ألسنتهم أفتأذن لي أن أضع للعرب ما يعرفون أو يقيمون به كلامهم ؟ فقال: لا، فجاء رجل إلى زياد، وقال: أصلح الله الأمير، توفي أبانا وترك بنون، فقال زياد: ادعوا لي أبا الأسود، فلما حضر، قال: ضع للناس الذي نهيتك عنه".

وفي الأغاني: "إن أبا الأسود دخل على ابنته بالبصرة فقالت: يا أبتي ما أشد الحر، فرفعت كلمة (أشد) فظنها تسأله وتستفهم منه أي زمان الحر أشد ؟ فقال: شهر ناجر، فقالت: يا أبتي إنما أخبرتك، و لم أسألك) [١].

ومنها أننا قد سمعنا فيما تقدم روايات وردت عن أهل البيت عليهم السلام، وفيها: من انهمك في طلب النحو فقد سُلب الخشوع، وأن علم النحو سهك، وأنه لا يضر من جهله ولا ينفع من علمه [٢]، وأن أرباب العربية يحرفون الكلم عن مواضعه، وآل محمد عليهم السلام يصدرون عن قول واحد فلا يخالف بعضهم بعضاً.

ومثل الكلام المتقدم يُقال فيما رواه الكراكجي في معدن الجواهر عن علي عليه السلام: (وقال عليه السلام: العلوم أربعة: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنحو للسان، والنجوم لمعرفة الأزمان)[٣].

والرواية كما ترون مرسلة، و لم أعثر على أحد رواها قبل الكراكجي، بل كل من رواها بحسب ما رأيت كان ينقل عنه، والغالب على الظن أن الرواية عامية. وغير الإرسال، فإن الممكن حمل معنى النحو فيها على معنى غير الذي نعرفه اليوم، لاسيما والكل متفق على أن علم النحو بصورته المعروفة لم يكن على عهد علي عليه السلام، بل لو صدقنا جدلاً ما قيل

١- مجلة تراثنا - مؤسسة آل البيت: ج١٣ ص٣٢ وما بعدها.

٢- وردت الرواية في كتاب الكافي المحقق بالصورة التالية: محمد بن الحسن وعلي بن محمد، عن سهل بن زياد، عن محمد بن عيسى، عن عبيد الله بن عبد الله الدهقان، عن درست الواسطي، عن إبراهيم بن عبد الحميد، عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: (**دخل رسول الله صلى الله عليه وآله المسجد فإذا جماعة قد أطافوا برجل فقال: ما هذا ؟ فقيل: علامة، فقال: وما العلامة ؟ فقالوا له: أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعها، وأيام الجاهلية، والأشعار العربية، قال: فقال النبي صلى الله عليه وآله : ذاك علم لا يضر من جهله، ولا ينفع من علمه، ثم قال النبي صلى الله عليه وآله : إنما العلم ثلاثة: آية محكمة، أو فريضة عادلة، أو سنة قائمة، وما خلاهن فهو فضل**) الكافي - الشيخ الكليني: ج١ ص٣٢. ولكنها في كتاب شرح أصول الكافي بالصورة التالية: محمد بن الحسن وعلي بن محمد، عن سهل بن زياد، عن محمد بن عيسى، عن عبيد الله بن عبد الله الدهقان، عن درست الواسطي، عن إبراهيم بن عبد الحميد، عن أبي الحسن موسى عليه السلام، قال: (**دخل رسول الله صلى الله عليه وآله المسجد فإذا جماعة قد أطافوا برجل فقال: «ما هذا ؟»، فقيل: علامة، فقال: «وما العلامة ؟». فقالوا له: أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعها وأيام الجاهلية والأشعار [و] العربية، قال: فقال النبي صلى الله عليه وآله : «ذاك علم لا يضر من جهله، ولا ينفع من علمه، ثم قال النبي صلى الله عليه وآله : «إنما العلم ثلاثة: آية محكمة، أو فريضة عادلة، أو سنة قائمة، وما خلاهن فهو فضل»**) شرح أصول الكافي - مولي محمد صالح المازندراني: ج٢ ص٢١. وواضح أن وجود [و] بين الأشعار والعربية يدخل النحو وعلم اللغة في حيز العلوم التي لا تضر ولا تنفع. ولعله الأقوى لأن العرب لم تكن تعرف غير أشعارها فلا موجب لتحديد الأشعار بكونها الأشعار العربية.

٣- معدن الجواهر - أبو الفتح الكراجكي: ص٤٠، ومثله في كنز الفوائد: ص٢٤٠، وأعلام الدين في صفات المؤمنين – الديلمي: ص٨٣.

عن إرشاد علي لأبي الأسود، فإننا مع هذا لا نجد من يقول أن هذا العلم قد اكتمل، أو عُرف واشتهر بين الناس في زمن علي عليه السلام بحيث يعده بين العلوم.

وإذا كنا قد قرأنا قول النحاة والمؤرخين في عبد الله بن أبي إسحاق "بأنه أول من بعج النحو ومد القياس والعلل" فإن آراء هذا الرجل ستوصف بعد حين، كما يقول محمد بن سلام: (سمعت رجلاً يسأل يونس عن ابن أبي إسحاق وعلمه، قال: هو والنحو سواء، أي هو الغاية فيه، قال: فأين علمه من علم الناس اليوم ؟ قال: لو كان في الناس اليوم من لا يعلم إلا علمه لضحك به ولو كان فيهم أحد له ذهنه ونفاذه، ونظر نظره كان أعلم الناس) [١].

إذن علم ابن أبي اسحق وقد عاش بعد أبي الأسود يوصف بأنه يثير الضحك، فما بالك بعلم من سبقه كأبي الأسود نفسه، وهل يتصور أحد بعد هذا أن يكون للنحو حداً معروفاً بحيث يُدرج بين العلوم. ومقصودي من النحو هنا ما يعرفه الناس عنه، وما يدرينا لعل علياً سلام الله عليه إن صحت الرواية عنه قد قصد شيئاً آخر، وربما أخذ النحويين الاسم من هذه العبارة أو غيرها اشتباهاً منهم أو بأي داعٍ آخر.

أما ما روي عن أبي جعفر الجواد عليه السلام من أنه قال: (**ما استوى رجلان في حسب ودين قط إلا كان أفضلهما عند الله عز وجل آدبهما**. قال: قلت: قد علمت فضله عند الناس في النادي والمجلس فما فضله عند الله ؟ قال: **بقراءة القرآن كما أنزل، ودعائه من حيث لا يلحن وذلك الدعاء الملحون لا يصعد إلى الله**) [٢].

أقول: لا أحسب أحداً يقول أن المراد من اللحن هنا الخطأ النحوي، ويكفينا أن نستشهد بما قاله ابن فهد الحلي بعد إيراده الرواية: (ويقرب منه قول الصادق عليه السلام: "**نحن قوم فصحاء إذا رويتم عنا فأعربوها**". فإن كان المراد من هذين الحديثين ما دل عليه ظاهرهما فكثيراً ما نرى من إجابة الدعوات غير المعربات، وكثيراً ما نشاهد من أهل الصلاح والورع ومن يرجى إجابة دعائهم لا يعرفون شيئاً من النحو. وأيضاً إذا لم يكن دعائه مسموعاً فلا فايدة فيه فلا يكون مأموراً به لانتفاء فائدته، ولا يتوجه الأمر بالدعا إلا إلى حذاق النحاة بل النحوي أيضاً ربما يلحن في بعض الأدعية لافتقارها إلى الإضمار والتقدير والحذف، واشتغاله حالة الدعا

١- مجلة تراثنا - مؤسسة آل البيت: ج١٣ ص٧٠ – ٧١.
٢- وسائل الشيعة – الحر العاملي: ج٦ ص٢٢١.

بالخشوع والتوجه إلى الله تعالى عن استحضار أدلة النحو وقوانينه، وكل هذه الأمور باطلة خلاف المشاهد من العالم (العلم) وضد المعلوم من أخبارهم عليهم السلام ووصاياهم فإنهم دلوا على كل شيء يتعلق بمصالح العباد، وقد ذكروا في آداب الدعا وشروطه أموراً كثيرة ستقف عليها في هذا الكتاب إنشاء الله تعالى و لم يذكروا الإعراب ولا معرفة النحو فيها، وإذا لم يكن المراد منهما ذلك فما معناهما ؟ فاعلم أيدك الله انه لما كان الواقع خلاف ما دل عليه ظاهر الخبرين عدل الناس إلى تأويلهما، فبعض قال: الدعاء الملحون دعاء الإنسان على نفسه في حالة ضجرة بما فيه ضررها واستشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾، قال المفسرون: أي ولو يعجل الله للناس الشر أي إجابة دعائهم في الشر إذا دعوا به على أنفسهم وأهليهم عند الغيظ والضجر مثل قول الإنسان: رفعني الله من بينكم. استعجالهم بالخير أي كما يعجل لهم إجابة الدعوة بالخير إذا استعجلوه بالخير لقضى إليهم أجلهم لفرغ من إهلاكهم، ولكن سبحانه تعالى لا يعجل لهم الهلاك بل يمهلهم حتى يتوبوا. وقال بعضهم: الدعاء الملحون دعاء الوالد على ولده في حال ضجره منه؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله سئل الله عز وجل: أن لا يستجيب دعاء محب على حبيبه. وبعضهم قال: الذي لا يكون جامعاً لشرايطه والكل بمعزل عن التحقيق؛ لأن مقدمة الخبر لا تدل على ذلك لأن الكلام قد ورد في معرض مدح النحو [١]. بل التحقيق أن نقول: أما الخبر الأول فالمراد من قوله عليه السلام: إن الدعاء الملحون لا يصعد إلى الله عز وجل أي لا يسمعه ملحوناً، ويجازى عليه جارياً على لحنه مقابلاً له بما دل ظاهر لفظه عليه، بل يجازى على قصد الإنسان من دعائه. كما سمع من بعضهم يقول عند زيارته المعصوم عليه السلام: وأشهد أنك قتلت وظلمت وغصبت بفتح أول الكلمة، ومن المعلوم بالضرورة أن هذا الدعا لو سمع منه جارياً على لحنه لحكمنا بارتداده ووجوب تعزيره و لم يقل: به أحد، فدل ذلك على أن الدعا لا يجزى (يجرى) على ظاهر لفظة إذا كان المقصود منه غير ذلك) [٢].

وقال أيضاً: (وقوله عليه السلام: إن الدعاء الملحون لا يصعد إلى الله: أي لا يصعد ملحوناً إليه يشهد عليه الحفظة بما يوجبه اللحن إذا كان مغيراً للمعنى، ويجازى عليه كذلك بل يجازيه على قدر قصده ومراده من دعائه. ويؤيد ذلك ما رواه محمد بن يعقوب عن علي بن إبراهيم عن

١- لا أدري كيف فهم هذا، والحال أن لا شيء في كلامه يدل عليه ؟
٢- عدة الداعي - ابن فهد الحلي: ص١٨ – ١٩.

أبيه عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: "**قال ﷺ: إن الرجل الأعجمي من أمتي ليقرأ القرآن بعجمية فترفعه الملائكة على عربيته**". مع إنا نجد في أدعية أهل البيت عليهم السلام ألفاظ لا تعرف معانيها، وذلك كثير: فمنه أسماء واقسامات، ومنه أغراض وحاجات وفوائد وطلبات، فنسأل عن الله بالأسماء ونطلب منه تلك الأشياء ونحن غير عارفين بالجميع، و لم يقل أحد: إن مثل هذا الدعا إذا لم يكن معربا يكون مرد ودامع [١] إن فهم العامي لمعان الألفاظ الملحونة أكثر من فهم النحوي لمعاني دعوات عربية لم يقف على تفسيرها ولغاتها بل عرف مجرد إعرابها، بل الله يجازيه على قدر قصده ويثيبه على نيته. لقوله ﷺ: "**الأعمال بالنيات**". وقوله ﷺ: "**نية المؤمن خير من عمله**" وهذا نصفى هذا الباب؛ لأن الجزاء وقع على النية فانتفع به الداعي، ولو وقع على العمل الظاهر لهلك. ولقوله ﷺ: "**إن سين بلال عند الله شين**". وجاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين إن بلالاً كان يناظر اليوم فلاناً فجعل يلحن في كلامه، وفلاناً يعرب ويضحك من بلال، فقال أمير المؤمنين: "**يا عبد الله، إنما يراد إعراب الكلام وتقويمه لتقويم الأعمال وتهذيبها، ما ينفع فلاناً إعرابه وتقويمه لكلامه إذا كانت أفعاله ملحونة أقبح لحن ؟ وماذا يضر بلالاً لحنه في كلامه إذا كانت أفعاله مقومة أحسن تقويم ومهذبة أحسن تهذيب**". فقد ثبت بهذا الحديث إن اللحن قد يدخل في العمل كما يدخل في اللفظ، وان الضرر فيه عائد إلى وقوعه في العمل دون اللفظ) [٢].

أقول: ولعلهم يستشهدون بما رواه الكليني في باب رواية الكتب والحديث وفضل الكتابة والتمسك بالكتب: محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن جميل بن دراج، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: (**اعربوا حديثنا فإنا قوم فصحاء**)[٣].

قال الميرزا النوري شارحاً هذا الحديث: ("**أعربوا أحاديثنا فإنا قوم فصحاء**". وللحديث معنى آخر لعله أظهر كما صرح به شراح الأحاديث بأن يكون المراد إظهار الحروف وإبانتها بحيث لا تشتبه بمقارباتها، وإظهار حركاتها وسكناتها بحيث لا يوجب اشتباها، أو المراد إعرابه عند الكتابة بأن يكتب الحروف بحيث لا يشتبه بعضها ببعض. وعلى ما رجحه

١- كذا في الأصل ولعلها دامغ.
٢- عدة الداعي - ابن فهد الحلي: ص٢٠ – ٢٢.
٣- الكافي - الشيخ الكليني: ج١ ص٥٢ ح١٣.

(رحمه الله) فالمراد أن يجعل عليها ما يسمى اليوم عند الناس إعراباً. وكيف كان، فرعاية الجميع أحوط كما صرح به المجلسي في المرآة) [١].

وقال صاحب شرح أصول الكافي: (قال أبو عبد الله عليه السلام: "**أعربوا حديثنا فإنا قوم فصحاء**" الإعراب الإبانة والإيضاح، يقال: أعرب كلامه إذا لم يلحن في الحروف والإعراب، وسميت الإعراب إعراباً؛ لأنها تبين المعاني المختلفة الواردة على سبيل التبادل وتوضحها وتميزها بحيث لا يشتبه بعضها ببعض، والفصاحة الخلوص والجودة في اللسان وطلاقته، يقال: فصح الرجل بالضم فصاحة، وهو فصيح إذا خلصت عبارته عن الرداءة وجادت لغته وطلق لسانه، وهم عليهم السلام أفصح الفصحاء؛ لأنهم أوتوا الكلمات العجيبة الجامعة والعبارات الأنيقة الرائقة الخالية عن النقص واللحن وعن كل ما يوجب غبار الطبع السليم ونفار العقل المستقيم وكراهة السمع.

والمعنى: إذا حدثتم بأحاديثنا فأعربوا حروفها وكلماتها وأظهروا إعرابها وحركاتها كما ينبغي ولا تلحنوا في شيء منها لئلا يشتبه بعضها ببعض "**فإنا قوم فصحاء**" لا نتكلم إلا بكلام فصيح ليس فيه نقص ولحن في الحروف والحركات، فإن ألحنتم في أحاديثنا وأفسدتم حروفها وكلماتها وحركاتها اختلت فصاحتها وذلك مع كونه موجباً للاشتباه وفوات المقصود نقص علينا وعليكم) [٢].

أقول: الإعراب هو الإفصاح والإبانة، فيقال: أعرب بحجته، أي أفصح بها و لم يتق أحداً، قال الكميت: وجدنا لكم في آل حاميم آية * تأولها منا تقي ومعرب. يعني المفصح بالتفصيل، والساكت عنه للتقية [٣]. وأعرب الرجل: أفصح القول والكلام، وهو عربابي اللسان، أي: فصيح [٤]. وقال الشيخ الطريحي: (و"الإعراب" بكسر الهمزة: الإبانة والإيضاح، ومنه الحديث (**أعربوا أحاديثنا فإنا قوم فصحاء**) ومنه الخبر (أعربوا القرآن) أي بينوا ما فيه من غرائب اللغة وبدائع الإعراب) [٥].

١- خاتمة المستدرك - الميرزا النوري: ج٢ ص٨٤.
٢- شرح أصول الكافي - مولي محمد صالح المازندراني: ج٢ ص٢٢٤ – ٢٢٥.
٣- الصحاح للجوهري مادة عرب.
٤- كتاب العين - الخليل الفراهيدي: ج٢ ص١٢٨.
٥- مجمع البحرين - الشيخ الطريحي: ج٣ ص١٤٦ – ١٤٧.

وعلى هذا فالمراد بقولهم (**أعربوا حديثنا**) أي بينوا للناس غرائبه، وأسراره، والمضامين التي ينطوي عليها، (**فإنا قوم فصحاء**) أي: نلقي لكم بالأصول كما ورد وعليكم بيان التفصيل، وكذلك: نتكلم بالكلام الموجز الذي يحمل دلالات ومعاني كثيرة عليكم تدبرها وتبينها.

أما قولهم: إن المراد من الإعراب وضع الحركات على الحروف، فمنقوض بما ورد عن الصادق عليه السلام من إنه لم يكن يراعي النحو في كلامه ويسميه سهكاً، ومنقوض كذلك بحقيقة أن من يهتم لهذه الدرجة بالحركات سيأتي بها حتماً في كلامه، فلا يبقى موجب لأن يطلب من غيره عمل ذلك. فهل يقولون أنهم عليهم السلام لم يكونوا يظهرون الحركات على الحروف ويطلبون من رواة حديثهم أن يفعلوا ذلك ؟

أقول: إذن تحقق المطلوب فالمعصوم لا يرى ضرورة لالتزام القواعد النحوية في كلامه.

والواقع أن النحويين أطلقوا على الإعراب النحوي اسم الإعراب لأنهم يعتقدون أن بيان موقع الكلمة نحوياً وتحديد حركتها الإعرابية ينفع في معرفة معنى الكلام، فالأصل في كلمة (أعرب) هو الإبانة، ولا يمكن تحديدها بالمعنى النحوي، بل لا يمكن إدخال هذا المعنى على أنه مراد لمن ينطق بكلمة (إعراب، أو أعربوا، وما شاكل) إلا إذا ضمنّا أن المتكلم يعترف بهذا المعنى ويريده، وقد اتضح العكس مما تقدم.

أقول: ويدل على أن المراد من الإعراب بيان الكلمة والحرف ما ورد من أن رجلاً جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: (يا أمير المؤمنين، إن بلالاً كان يناظر اليوم فلاناً، فجعل يلحن في كلامه، وفلان يعرب ويضحك من فلان، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: **إنما يراد إعراب الكلام وتقويمه، ليقوم الأعمال ويهذبها، ما ينفع فلاناً إعرابه وتقويمه، إذا كانت أفعاله ملحونة أقبح لحن، وماذا يضر بلالاً لحنه، إذا كانت أفعاله مقومة أحسن تقويم، ومهذبة أحسن تهذيب**) [1].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآل محمد الأئمة والمهديين وسلم تسليماً كثيراً. ربي تقبل مني هذا القليل واغفر لي الكثير الكثير فأنا عبدك العاصي وأنت الرب الكريم.

١- مستدرك الوسائل - الميرزا النوري: ج٤ ص٢٧٩.

الفهرس

المقدمة ٥
مفهوم العصمة في اللغة والقرآن والحديث ٩
العصمة كما يعرفها المتكلمون ١٤
العصمة والجبر ٢٤
عودة على بدء ٢٩
تسديدهم عليهم السلام بروح القدس ٣٣
العصمة درجات ٣٨
هل يسهو المعصوم أو ينسى ؟ ٤٣
توضيح حول معنى الشيطان ٥٦
تقسيماتهم للعصمة ٦٠
الدليل على العصمة ٦٣
يستدلون بآيات بظن أنها تنقض العصمة ٦٨
تحديدهم العصمة بالتبليغ ٧٠
عصمة أولي الأمر ٧١
هل يعرف المعصوم كل العلوم الدينية ؟ ٨٣
معالجة شبهة ٨٨
هل يعلم المعصوم الغيب ؟ ٩٠
هل المعصوم يعرف كل اللغات ؟ ٩٢
هل آباء المعصوم معصومون ؟ ٩٧
ما يتعلق بوقت العصمة ٩٨
كلمة عن طهارة بول النبي وغائطه ١٠٢
هل للمعصوم ظل ؟ ١٠٣
طهارة دم المعصوم ١٠٥
مصادر علم المعصوم ١٠٦
هل لابد للمعصوم من الالتزام بقواعد النحو العربي المتعارفة ؟ ١٠٧
اللغة وسيلة اتصال ١١٥
ولكن ماذا عن مخالفة النحو ؟ ١١٨
منهج النحويين ١١٩
إهمال النحو العربي لقضية التطور ١٣٨
نتيجة ما تقدم ١٤٠
الفهرس ١٤٩